عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام
في الأديان السماوية الثلاث
(الإسلام – اليهودية – النصرانية)

د. عبدالله علـي المـلا[١]
د. حسن يوسف حموده[٢]

مقدمة :

الحمد لله الذي يعلم حيث يجعل رسالته، سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار والصلاة السلام على النبي المختار سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلـى آلـه الأبرار، وإخوانه الأخيار، وصحابته الأطهار، وورثته والداعين بدعوته إلـى الفـوز والرضوان . وبعد

فإن رسل الله تعالى هم عباد مصطفون، اختارهم الله عز وجل لتبليغ شرائعه وأحكامه لخلقه، وأوجب لهم من الصفات ما يؤهلهم لحمل الرسالة، ويجعلهـم قـدوة حسنة يؤتسى بهم في كل أعمالهم، وفي كل أمورهم، وفي خلقهم حتى يهتدي بهم.

ولذلك كان ولابد أن يتصف المصطفى من الرسل بعلو الهمة، وصحة العقل والفكر، وصدق القول، وأمانة التبليغ، والعصمة من كل ما يشوه صورته البـشرية، فوق ذلك لابد وأن يكون الرسول المصطفى سليم البدن حتى لا يتأذى منـه أحـد، أو ينفر منه بشر، وإلا كان ذلك حجة في عدم قبول دعواهم، وأن يكون قوي الروح حتى لا تسطو عليه نفس بشرية أو جنية، كما لابد وأن يكون قوي الحجة والفطانة.

وإنما لزمت الرسل هذه الصفات، لأنهم قدوة حسنة يقتدى بهم، ولو تخلوا عن تلك الصفات لانحطت فطرهم، وضعفت عقولهم، وتضاءلت نفوسهم أمـام سـلطان الهوى ونزعات الشيطان، وتقاعسوا عن تنفيذ أوامر الله ونواهيه، وكانوا عاجزين عن

---

(١) الأستاذ المشارك بكلية التربية الأساسية قسم الدراسات الإسلامية الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.
(٢) الأستاذ المساعد بكلية التربية الأساسية قسم الدراسات الإسلامية الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.

تبليغ كل ما عهد إليهم من قبل من اصطفاهم واختارهم، وعندئذ لا يكـون الرسـول للأمانة أهلاً، ولا للتبليغ حاملاً، ولا للـصدق منفـذاً، وعلـى الجملـة لا يكونـون للاختصاص الرباني، ولا للاصطفاء الإلهي محل ثقة .

وفيما عدا ذلك من الصفات فهم، صلوات الله عليهم أجمعين، بشر يعتريهم ما يعتري سائر البشر، من أكل، وشرب، ونوم، ونكاح، ومرض غير منفر، وغير ذلك .

وقد ينسى فيما لا علاقة له بتبليغ ما أمره الله بتبليغه، وقد يخطـىء[1] فـي تصريف بعض الأمور الإنسانية، التي تدخل في باب الاجتهاد المأذون به، ولكنه ينبه على هذا الخطأ، حتى لا يكون الخطأ بمقتضى وجوب التأسي به هو الصواب، وقـد تمتد إليه أيدي الظلمة، وينالة الاضطهاد والتعذيب، وقد يقتل إلا أن يعده الله بالعصمة من الناس كما وعد الله، عز وجل، رسوله سيدنا محمداً، صـلى الله عليـه وسـلم، بذلك[2] في قوله تعالى :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة : ٦٧)

سبب اختيار الموضوع :

وكان سبب اختيار الموضوع هو ما جاء في بعض الكتب أن الأنبياء غيـر معصومين فعز علينا ذلك، كيف يرسل الله عز وجل نبياً ويكون غير معصوم، وقـد أمر الله عباده باتباعهم، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى جعل طاعتهم من طاعته، فقال سبحانه: **(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)** [3]، وقال : **(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَـانتَهُوا)** [4].. وما يجري على نبي يجري على الكل في الطاعة والاقتداء

---

(١) مع الأدب والاحترام لكل نبي مما ينسب إليه من الخطأ، وليس هذا يعني الذنب، إنما يعني الخطـأ عنـد الاجتهاد فهو عبادة يثاب النبي عليه سواء أصاب أو أخطأ.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبدالرحمن حبنكه، ص٣٣٤ بتصرف، وكبرى اليقينات الكونية، د/ محمد البوطي، ص٢٠٣.

(٣) سورة النساء: ٨٠.

(٤) سورة الحشر: ٧.

بدليل قوله تعالى: (أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [1] فلابــد مــن ذلــك أن يكونوا معصومين، فأحببنا توضيح ذلك والله المستعان.

ولقد تضمن هذا البحث مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، ثم ثبــت للمراجــع مرتبة حسب الترتيب الهجائي، وفهرس للموضوعات.

فأما المقدمة: ففيها الحمد والثناء على الله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلوات الله، عليه وعلى آل بيته وأصحابه وإخوانه النبيــين والمرســلين، وسبب اختيار الموضوع.

وأما الفصل الأول ففيه ثلاث مباحث .

المبحث الأول : تعريف العصمة وأنواعها .

المبحث الثاني: مفهوم العصمة عند اليهود والنصارى .

المبحث الثالث : في التحمل والأداء .

وأما الفصل الثاني : ففيه عرض لأهم الآراء التي وردت حــول عــصمة الأنبيــاء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين عن الذنوب.

وأما الفصل الثالث : ففيه مناقشة الأدلة، والاستدلال للرأي الراجح، والرد على الآراء المردودة والمرجوحة.

وأما الخاتمة: ففيها أهم ما جاء في البحث وبعض التوصيات.

---

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

الفصل الأول : عصمة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين

يدور هذا الفصل على ثلاثة مباحث :

الأول: تعريف العصمة وأنواعها.

الثاني: مفهوم العصمة عند اليهود والنصارى .

الثالث: في التحمل والأداء .

المبحث الأول : تعريف العصمة لغة واصطلاحاً وأنواعها.

أولاً: تعريف العصمة لغة واصطلاحاً :

" العصمة لغة هي المنع يقال : عصمه الطعام، أي منعه من الجوع، والعصمة أيضاً: الحفظ، وقد عصمه، يعصمه (بالكسر) عصمة فانعصم، واعتصم بالله، أي امتنع بلطفه من المعصية، وقوله تعالى: (لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) يجوز أن يراد لا معصوم، أي لا ذا عصمة، فيكون فاعل بمعنى مفعول، والمعصم: موضع السوار من الساعد، واعتصم بكذا، واستعصم به، إذا تقوى وامتنع، وفي المثل: كن عصاميا ولا تكن عظاميا"[1] .

وقيل: " عصم إليه عصما لجأ إليه، وعَصَمَ القربة: جعل لها عصاماً، وعصم الله فلانا من الشر أو الخطأ، وعصمه: حفظه ووقاه ومنعه، ويقال: عصم الشيء أي منعه"[2] .

ثانياً: تعريف العصمة اصطلاحاً:

والعصمة اصطلاحاً هي: حفظ الله عز وجل ظواهر الأنبياء والرسل، وبواطنهم من كل محرم أو مكروه من قول أو فعل، سواء كان في الظاهر مثل: الزنى والسرقة ونحو ذلك .. أو في الباطن مثل: الكبر والحسد، وسائر الأمراض القلبية، فلا تتوجه إرادتهم إلى شيء من ذلك أبداً.

وبعبارة أخرى.. العصمة هي: عبارة عن عدم خلق الله تعالى ذنباً في النبي أو الرسول" .

---

(١) مختار الصحاح: للإمام/ محمد بن أبي بكر الرازي، ص١٨٤ ط/ ١٩٩٢م.

(٢) المعجم الوسيط، د/ إبراهيم أنيس وزملائه، ط٢، ص٦٠٥، ط/ دار إحياء التراث.

وقيل هي : " أن لا يخلق الله عز وجل في الأنبياء ذنباً، وعند الحكماء: هي ملكة تمنع عن الفجور وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، وتتأكد بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي" . وقيل يراد بها " ملكة تحول دون ارتكاب المعاصي صغيرها وكبيرها"[1] .

وبناء على تعريف العصمة الإصطلاحي تقسم العصمة إلى ثلاثة أنواع، كما سيأتي بيانه.

ثالثاً: أنواع العصمة:

تنقسم عصمة الله، تعالى، للأنبياء إلى ثلاثة أقسام، :

١- العصمة في التحمل: والمراد به أن يعصم الله، تعالى، أنبياءه ويحفظهم في حال تحملهم للرسالة الإلهية، والكلام الرباني، والشريعة التي يوجبها الله إليهم. حفظاً وصيانة منه، تعالى، لدينه وشريعته وكلامه من أن تقع عند النبي على صورة مبدلة ومحرفة، قال تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم،(**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**) [2] .

قال الإمام ابن كثير: هذا تعليم من الله، عز وجل لرسوله، صلى الله عليه وسلم، في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله، عز وجل، إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن

---

(١) راجع في ذلك : المواقف للإيجي، ص٣٦٦، ط/ مكتبة المتنبي القاهرة، ونهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي، ج٣، ص٦، والكوكب المنير لابن النجار، ج٢، ص١٦٧، والعقيدة الإسلامية د/ الفرت، ص٦٤، والموسوعة العربية الميسرة لمحمد شفيق غربال، ج٢، ص١٢١٦، ط/ دار الجيل .. ويقول (غربال): " إن العصمة فكرة شيعية تعني عصمة الأئمة، وأنهم واسطة بين الله وعباده، وقد قصرها أهل السنة على الأنبياء بعد أن يرسل إليهم، ومنهم من قصرها على الله، " العصمة لله وحده" بدليل معاتبته لرسله على ما قد يبدر منهم". الموسوعة العربية الميسرة لمحمد شفيق غربال، ج٢، ص١٢١٦، ط/ دار الجيل.
وهذا التفسير للعصمة – وهو القول بأن العصمة لله " خطأ فاحش، لأن العصمة تعني المنع والحبس، وهو على الله تعالى محال، فليس أحد فوقه ليمنعه ويحفظه عن أي أمر من الأمور، فهو تعالى فعال لما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فمقتضى الألوهية ووجوب الوجود، والكمال الذاتي، ينفي وصفه تعالى به، أي العصمة.

(٢) سورة القيامة، الآيات ١٦-١٨ .

يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه"[1] . فالله، تعالى، أخبر بأنه عاصم للنبي حال تحمله للرسالة ولكلامه، حال ما يلقيه إليه، وبأنه، تعالى، هو المتكفل بذلك، وهذا الأمر ليس خاصاً بسيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، بل هذا الحفظ عام له ولجميع أنبيائه، تبارك وتعالى، لأنهم جميعهم يشتركون في هذا الوصف، وهو النبوة، فبالتالي جميعهم يشملهم هذا الحفظ، وتلك العناية والعصمة، حال التحمل عن الله تعالى. هذا من جهة دلالة الدليل النقلية على ذلك، وأما دلالة العقل عليه، فإن ذلك ظاهر لا يلتبس على أحد، إذ لو لم يكن الله عاصماً أنبياءه حال التحمل، لجاز أن تقع شريعته عند الخلق على خلاف ما أراد. وهذا محال.

٢- العصمة في الأداء: ويراد به عصمة الله، تعالى، لأنبيائه، عليهم السلام، من الوقوع في الخطأ والزلل، حال أدائهم لكلام الله، تعالى، وشريعته إلى أقوامهم. ولا شك أن هذه العصمة مما نص عليها النقل، ودل عليها العقل. أما دلالة النص الصريح فهو قوله تعالى: (مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [2]. فدل هذا النص على أن ما ينطق به النبي، صلى الله عليه وسلم، من كلام الله، تعالى، محفوظ فيه ومعصوم من التحريف والتبديل والتغيير فيه، لقوله، تعالى: (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) ولو جاز عليه التبديل والتغيير وانتفاء العصمة لما قال المولى، عز وجل، ذلك، ونص على أنه وحي من عنده، تبارك وتعالى.

قال ابن كثير : " إنما يقول – أي الرسول – ما أمر به، ليبلغه إلى الناس كاملاً، موفراً، من غير زيادة ولا نقصان"[3] . وهذا الحكم وهو عصمة النبي، صلى الله عليه وسلم، حال الأداء، عام، أيضاً، في جميع الأنبياء، عليهم السلام، وليس خاصاً بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، لاشتراكهم جميعاً في هذه الصفة والمفهوم، ألا وهو النبوة، فوجب أن يعصم الله، تعالى، الجميع، حال الأداء، كحال التحمل، عنه تعالى. وكذا دل عليه الدليل العقلي، إذ لولا ذلك، لجاز أن تقع رسالة الله، تعالى، إلى خلقه، على غير الصفة التي أنزلها، وأرادها لعباده، وهذا محال على الله، تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير، ص١٩٤٢، طبعة دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(٢) سورة النجم، الآيتان، ٢، ٣.

(٣) تفسير ابن كثير، ص١٧٧٥، طبعة دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٣- العصمة عن الذنوب: ويراد به أن يحفظ الله، تعالى، ظواهر الأنبياء وبواطنهم من الإتيان بما هو محرم فعله، من المعاصي والذنوب، صغيرها وكبيرها، على خلاف سيأتي ذكره، إن شاء الله، تعالى، مما يقدح في مروءتهم ، وكرامتهم.

فهذه ثلاثة أنواع من العصمة نريد البحث فيها بين الأديان السماوية الثلاث، اليهودية، والنصرانية، والإسلام، ولنرى القدح فيها، أو التسليم بها، ماذا يستتبع من آثار ولوازم.

المبحث الثاني: مفهوم العصمة عند اليهود والنصارى :

يزعم اليهود والنصارى: أن الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ رسالات الله فقط، وليسوا بمعصومين في ما عدا ذلك من شئون حياتهم الخاصة والعامة، بل هم كسائر البشر يجوز عليهم الصواب والخطأ، ويجوز أن يفعلوا الخير والشر، ويجوز عليهم أن يذنبوا ذنوباً كبيرة أو صغيرة عمداً أو سهواً"[١].

أما قولهم: إن الأنبياء معصومون في تبيلغ رسالات الله عز وجل فهذا حق وصدق، وهذا هو الأصل في الأنبياء، ولو ترك هؤلاء القوم - اليهود والنصارى - رسالات الله عز وجل كما سلمها الأنبياء من غير تحريف أو تبديل وتغيير لكان جديراً بالقول بعصمة الأنبياء في كل أحوالهم، وشئون حياتهم، لأنهم أقدر على مقاومة الشيطان والهوى.

أما وأنهم - أي اليهود والنصارى - حرفوا وبدلوا وغيروا، فادعوا كذباً، وزعموا زوراً على أن الأنبياء غير معصومين، من هنا كان لزاماً علينا بيان ما ادعاه اليهود في توراتهم كذباً على الأنبياء، وما زعمه النصارى في أناجيلهم على رسولهم زوراً وبهتاناً.

---

(١) نقد التوراة، د/ أحمد حجازي السقا، ص٢٥١، ط/ دار الجيل بيروت. ونحن نختلف مع فضيلته في القول بأن اليهود والنصارى يقولون بعصمة الأنبياء من الخطأ في تبليغ رسالات الله عز وجل، فنقول إن اليهود والنصارى لا يقرون بالعصمة للأنبياء مطلقاً، فإذا كان رب العزة عند اليهود " يحمي غضبه على شعبه فيراجعه موسى فيندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه" راجع الخروج ٣٢: ٩- ١٤، فإذا كان الرب، والحال هذه، غير معصوم عندهم فهل يكون الأنبياء معصومين، وعند النصارى أن الأنبياء كلهم كانوا ثاوين في الجحيم وما خرجوا إلا على يد المسيح عليه السلام. فأين هي العصمة عندهم؟!

أولاً: وصف التوراة لكبار الأنبياء.

ترمي التوراة – خاصة الأسفار الخمسة – كبار الأنبياء بأفحش الكبائر المنافية لحسن الخلق، والاتباع في القدوة والأسوة، المجرئة على الشرور والمفاسد، فها هي التوراة تذكر ما عبر عنه اليهود عن بعض الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وكانوا قدوة، فبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى جملتهم قال لنبيه، صلى الله عليه وسلم: **(فبهداهم اقتده)** [1] فقد كتبوا عنهم ما يشينهم، وما يحط من قدرهم، ومن هؤلاء .

١- سيدنا لوط عليه السلام[2] .

أما سيدنا لوط عليه السلام: فهو فارس الميدان عند اليهود في الفحشاء والمنكر – الزنا وشرب الخمر– فتصفه التوراة بأبشع ما يكون الوصف من الحقارة وسوء الخلق، وذاك صنيع اليهود مع كل الأنبياء، فما برؤا ساحة نبي على الإطلاق، فسيدنا لوط، عليه السلام، ترميه التوراة بصفة هي من أحط الصفات التي ينأى عنها كثير من الحيوانات، ألا وهي زناه بابنتيه، فتقول التوراة: قام إبراهيم بصنع طعام، وأخذ زبداً ولبنا والعجل الذي عمله وقدمه للملائكة فأكلوا[3]، ثم تقول التوراة: إن

---

(١) سورة الأنعام، ٩٠.

(٢) ناهيك عما ذكرته التوراة عن سيدنا آدم، عليه السلام، من أنه أذنب عمداً ولم يتب. راجع سفر التكوين: الإصحاح ٣/ فقرة ١ وما بعدها، وعن سيدنا نوح، عليه السلام: أنه شرب الخمر حتى سكر فقام فتعرى فرأى ابنه حام عورته فأخبر أخويه بذلك – سام، ويافث– فذهبا لستر أبيهما، فاستيقظ نوح فدعا على كنعان بن حام. فما ذنب كنعان وما قد ولد بعد، إن هي إلا حاجة في نفس يعقوب عند محرف التوراة . انظر سفر التكوين: ٩/ ٢٠– ٢٧، وعن سيدنا إبراهيم، عليه السلام، فتزعم التوراة كذباً أنه باع عرضه مرتين، مرة لفرعون مصر، ومرة لأبيمالك ملك جرار، حتى يحيى بسببها – أي زوجته سارة – ويجني من ورائها مالاً كثيراً. انظر سفر التكوين: إصحاح ١٢/ ١٤ –٢٠ ، الإصحاح/ ح ٢٠. بتمامه.

(٣) انظر: سفر التكوين: الإصحاح ١٨/ فقرة بتصرف. وهذا من أكبر الكذب على الملائكة لأن الملائكة أجسام نورانية، وعباد مكرمون لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يملون ولا يتعبون: " يسبحون الليل والنهار لا يفترون " (الأنبياء: ٢٠)، بالفعل قدم لهم سيدنا إبراهيم، عليه السلام، الطعام فلم يأكلوا، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك فقال سبحانه وتعالى : " فما لبث أن جاء بعجل حينئذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط" (هود ٦٩، ٧٠) .

الملكان بعد ما أكلا وشبعا قدما إلى قرية لوط، وكانا يعجلان لوطا بالخروج، ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته[1] وابنتيه إلى خارج المدينة[2].

صعد لوط من صوغر وسكن الجبل وابنتاه معه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحيى من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر، واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث ذلك أيضاً في الليلة الثانية مع الصغرى، فحملت ابنتا لوط منه فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، ووضعت الصغرى ولداً وأسمته ابن عمي، وهو أبو بني عمون إلى اليوم"[3] .

وهكذا تنتهي قصة سيدنا لوط، عليه السلام، كما صورتها التوراة بهذه الصورة المخزية، سكر، وزنا، وبمن !! بفلذة كبده، بابنتيه – تعالى الله عما يقول المجرمون علواً كبيراً – وذلك خوفاً على النسل من أن ينقطع، ومع هذا فهذا الزعم باطل، لما فيه من المتناقضات التي طفحت بها التوراة.

يأبى كاتبوا التوراة المزورون إلا أن يلوثوا سمعة الأنبياء بهذه الصورة الوقحة، وذلك حتى ينحدر من هذا الزنا داود وسليمان، لأن هذا هو السبب في كتابة هذا الخبر، كما سنعلم عند الحديث عن هذين النبيين الكريمين، عليهما السلام، وهذا ما كان بإيجاز عن سيدنا لوط، عليه السلام .

٢- سيدنا يعقوب عليه السلام.

أما ما تحكيه التوراة عن جدهم سيدنا يعقوب عليه السلام، فهي حكايات ينأ عنها الجبين، فقد وصفته التوراة بالغش والخداع، والكذب، فهو فارس الميدان في هذا

---

(١) وتلك كذبة ثانية، لأن امرأته بقيت في المدينة ولم تخرج، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: " ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم" (هود: ٨١) . وقوله تعالى: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) (النمل: ٥٧)، وإذا كانت امرأته قد خرجت معه كما تزعم التوراة فأين هي من صنيع البنتين مع أبيهما.

(٢)التكوين: ١٩/ ١٢-١٧ .

(٣)التكوين: ١٩/ ٣٠ -٣٨ بتصرف.

الزعم الكاذب، فلقد زعمت التوراة كذبا وزوراً أن سيدنا يعقوب ما استولى على النبوة إلا بالحيلة والمكر والخداع والكذب، فالنبوة عندهم قنصاً بشرياً، وذلك ليصوغوا لأنفسهم أحقيتهم بالملك من بعده.

فبإيجاز: طلب سيدنا إسحاق طعاماً من ابنه الأكبر عيسو – وهو توأم يعقوب– حتى يباركه، فذهب عيسو ليتصيد – لأنه كان رجل صيد – حتى يأتي بطعام لأبيه، فدخل يعقوب، بمساعدة أمه له على إسحاق – وقد كف بصره – بمكر وخديعة وغش، وقدم لأبيه الطعام على أنه عيسو، فأكل إسحاق حتى شبع، وشرب الخمر حتى ارتوى، وباركه وانتهت بذلك البركة، ولم يبق لعيسو منها شيء كما تزعم التوراة.

فجاء عيسو من صيده وقدم لأبيه الطعام حتى يباركه، فوجد يعقوب قد سبقه، وأخذ البركة كلها، فقال عيسو لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي، فقال إسحاق: قد جاء أخوك بمكر وخديعة وأخذ بركتك، فقال عيسو: أما بقيت لي بركة، فأجاب إسحاق: إني قد جعلته سيداً لك، ورفعت إليه جميع إخوته عبيداً، وعضدته بحنطة وخمر، فقال عيسو: ألك بركة واحدة، باركني أنا أيضاً، فباركه إسحاق ببركة تشبه اللعنة، وكأنها تأكيد لبركة يعقوب، فقال إسحاق:

هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندا السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد"[1] .

وحاشا لله أن يصطفي نبياً يكون هذا حظه من القسوة والظلم والجور، ويكون غير عادل بين أبنائه، ولكن هذه هي الخطط المحكمة التي لفقها اليهود كذباً وزوراً ليعقوب، عليه السلام، وما دام الأمر كذلك – وهم أبناؤه – فلا حرج عليهم في الغش والخداع والمكر والكذب، وهذا هو مفهومهم للنبوة الذي توقف عليه خداع يعقوب لأبيه بأكلة سمينة، وشرب معتق، حتى ينال بركته دون أخيه الأكبر، ولا يدري المساكين أن النبوة لابد وأن يكون لها سبق إعداد واختيار واصطفاء، لأنه سبحانه وتعالى: " أعلم حيث يجعل رسالته" [2] .

---

(١) راجع في ذلك سفر التكوين : الإصحاح ٢٧بتصرف .

(٢) (الأنعام : ١٢٤)

٣- سيدنا هارون عليه السلام :

حتى هذا النبي الكريم الحليم الطاهر النقي لم يسلم من خبث اليهود ومكرهم، فتزعم التوراة أنه، عليه السلام، هو الذي صنع العجل الذي كان يعبده بنو إسرائيل، فتقول التوراة:

" لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل – الميقات – اجتمع الشعب إلى هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا فقال لهم هارون، انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، ففعلوا وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل، وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، وبنى هارون أمامه مذبحاً، ونادى وقال: غداً عيد الرب، فاصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب"[1] .

هذا ما تزعمه التوراة عن سيدنا هارون، عليه السلام، وهو زعم باطل وكذب، يترفع عنه هذا النبي الكريم في أن يصنع معبوداً ليعبد من دون الله، وهو يعلم أن العبادة لا تكون إلا لله وحده لا شريك له.

سيدنا داود وسليمان عليهما السلام :

فأما عن هذين النبيين الكريمين فإن التوراة – على من حرفها لعائن المنتقم الجبار – ترميهما بأقذر التهم وأبشع الفجور، حيث ينسبان مرة إلى يهوذا بن يعقوب الذي زنى بـ ثامارا زوجة ابنه فانحدر من الزنا داود، ومرة أخرى ينسبان إلى ابنتي سيدنا لوط، عليه السلام، عندما سقتا أباهما خمراً واضطجعتا معه واحدة بعد الأخرى، فانحدر من زناهما سيدنا داود وسليمان.

٤- فأما نبي الله داود عليه السلام :

فتزعم التوراة – كذبا وزوراً – أن سيدنا داود ولد زنا من جهة الرجال والنساء، فمن جهة الرجال: ينتهي نسبه إلى فارص وهو الجد العاشر لسيدنا داود

---

(١) انظر سفر الخروج، ٣٢/١-٦ بتصرف.

وينتهي نسب فارص إلى ثمارا التي زنى بها يهوذا بن سيدنا يعقوب، وهي زوجة ابن يهوذا[1] .

ومن جهة النساء أن راعوث جدته الثالثة أم عوبيد جده الثاني ينتهي نسبها إلى المؤابيين، أولاد بنت سيدنا لوط الكبرى من زناها بأبيها، وأن رحبعام بن سيدنا سليمان كانت أمه عمونية اسمها نعمة من أبناء عمون بن بنت سيدنا لوط الصغرى من زناها – كذلك بأبيها "[2] . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى وهي أقبح وأفجر من الأولى – ما تنسبه التوراة كذباً وزوراً إلى سيدنا داود، عليه السلام، حيث تقول: " كان داود يتمشى فوق سطح البيت، فرأى امرأة قائد جيشه (أوريا الحثي) تستحم، وكانت جميلة جداً فأعجب بها، فأرسل في طلبها، وزنى بها فحملت – وأتى من حملها سيدنا سليمان – فأراد سيدنا داود أن يخفي جريمته، فأرسل إلى أوريا أن ينزل ليستحم مع زوجته، فأبى أن ينزل ويترك الجيش لأنه كان مخلصاً.

فدبر داود خطة لقتله – كما تزعم التوراة – فأرسل إلى قائد الجيش العام بأن يرسل أوريا مع كوكبة من الجند في مواجهة العدو ثم ينسحب الجند فجأة ويتركوا أوريا ليلقي حتفه، وحدث ما كان يتمناه داود، فسر بذلك وضم المرأة إلى بيته" [3].

ومما يزيد الطين بلة: أن التوراة تصور داود بأنه كان يرقص ويلعب ويغني، أمام الرب وهو جالس في التابوت، فأشرف التابوت على الوقوع إلى الأرض، فأمسك به قائد المركبة التي عليها تابوت الرب حتى لا يقع، فغضب الرب من ذلك وضرب قائد المركبة حتى مات، فاغتاظ داود من الله لأجل فعلته[4].

وهكذا تصور التوراة المحرفة – على محرفيها لعائن الله والناس أجمعين – سيدنا داود عليه السلام كذباً وزوراً وبهتاناً بهذه الصورة المزرية، التي لا تليق إلا بهم إخوان القردة والخنازير.

---

(١) أباطيل التوراة، د/ محمد البار، ص١٤٩ بتصرف .

(٢) نقد التوراة ، د/ أحمد السقا، ص٢٥٤ بتصرف .

(٣) صموئيل الثاني: ١١/٢- ٢٧، وكذلك أباطيل التوراة، الدكتور محمد البار، ص

(٤) صموئيل الثاني: الإصحاح ٦/١-٨ .

ويتعدى الأمر بهم إلى أن يصفوا رب العزة سبحانه وتعالى بأنه جالس في التابوت ويغضب على من أمسك بالتابوت حتى لا يقع، فيضربه حتى الموت، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فإذا كان هؤلاء قد وصل الأمر بهم لهذه الدرجة، درجة أن يصفوا الله عز وجل بما لا يليق بجلاله، فلا ضير بعد ذلك أن يصفوا الأنبياء بهذه الأوصاف التي لا تليق إلا بهم، هذا ما كان من التوراة عن نبي الله داود عليه السلام.

٥- أما حديثها عن سيدنا سليمان عليه السلام :

فإنه في زعمها قد تزوج بنساء كثيرات، وصنع لهن تماثيل وعبدها معهن، لأنهن أملن قلبه كما تزعم التوراة كذباً وزوراً، وتناقض التوراة نفسها إذ تقول: لم يكن قلبه كقلب أبيه داود الذي كان كاملاً مع الرب[١]، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب، وقد أوصاه الرب أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فغضب الرب عليه ومزق مملكته[٢] .

هكذا تزعم التوراة كذباً وزوراً أن سيدنا سليمان عبد الآلهة والأوثان من أجل حبه لنسائه، ويعني ذلك أنه كفر بالله تعالى وأشرك به، وغضب الله عليه، وحاشاه أن يكون كذلك، لأنه نبي كريم ابن نبي كريم، وما باء أحد بغضب من الله بمثل ما باء به هؤلاء الأحبار محرفي التوراة.

هذه هي التوراة المزعومة وادعائها زوراً وبهتاناً على النبيين الكريمين، داود وسليمان عليهما السلام، بل وعلى رب العزة سبحانه وتعالى من كونه سريع الغضب، كثير الندم – تعالى الله عما يقول الظالمون – وإذا كان الأنبياء بهذه الصورة عندهم، مخادعين سفاكين محتالين زناة فجرة، فأولى بهم ألف مرة أن يكونوا هم أصحاب هذه القبائح، وهذا هو المشاهد فيهم، بل إن توراتهم وتلمودهم يأمرانهم بأن يقتلوا ويسرقوا ويكذبوا ويفجروا ويخدعوا، وكل ذلك فيهم ومباح لهم، لأنهم شعب الله المختار، وأبناء

---

(١) الآن قلب داود مع الرب، وقبل ذلك كان زانياً وقاتلاً، فهل من كان قلبه مع الله كاملاً أيجوز له أن يأتي برذيلة الزنى، أو جريمة القتل. انظر سفر الملوك الأول: ٤/١١.

(٢) الملوك الأول: ١/١١-١٢.

الله وأحباؤه، وما خلق البشر إلا لخدمتهم فهم سادة والناس عبيد عندهم، لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم.

هذا ما كان من كتابهم المقدس التوراة، وزعمها عدم عصمة الأنبياء، عليهم السلام، لنرى الجانب الآخر من الكتاب المقدس، الأناجيل وما فيها من أباطيل وكذب، حول هذه العصمة.

ثانياً: وصف الأناجيل للأنبياء :

الأنبياء كلهم مذنبون ومخطئون، ولا معصوم سوى المسيح، عليه السلام.

لا تترفع الأناجيل عن الكذب على التوراة، فكاتبوا الأناجيل ثلاثتهم يهود، متى، ومرقس، ويوحنا، ورابعهم بيزنطي وثني وهو لوقا، فهل تجدهم يترفعون عن الكذب في حق الأنبياء، لنرى ما تمخضت به الأناجيل، ولنذكر مثالاً واحداً هو أساس عقيدة النصارى التي تتمثل في الصلب والفداء، والذي يجعل كل الأنبياء غير معصومين.

جعل النصارى معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم، وهي أن المسيح، عليه السلام، هو المعصوم وحده، لأنه رب وإله، ولأنه المخلص الأوحد للناس من العقاب على خطيئة آدم، التي ارتكبها بأكله من الشجرة، التي نهى عنها، وقد ورث ذلك ذريته من بعده – بما فيهم الأنبياء والرسل – وإنه لا شفيع ولا مخلص لهم غير، لأن المخطيء – في نظرهم آدم – لا يخلص المخطئين – وهم ذريته – وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء وكتبهم[1].

يقول صاحب تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب: " إن النصارى يعتقدون أن الله، تبارك وتعالى، عاقب آدم وذريته بجهنم من أجل خطيئة آدم في

(١) راجع عقيدة الصلب والفداء لأجل خطيئة آدم، عليه السلام، كما يزعم النصارى، حيث إن المسيح عليه السلام ما صلب، وما رضى بإراقة دمه على خشبة الصليب إلا ليخلص البشرية بما فيهم جميع الأنبياء من قبله من الخطيئة التي ارتكبها أبوهم آدم، عليه السلام، الكتب التالية: الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم، وهداية الحيارى لابن القيم، الرد الجميل للإمام الغزالي، وبين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي، والأجوبة الفاخرة للإمام القرافي، والوحي المحمدي للشيخ رشيد رضا، والرد على النصارى لأبي البقاء صالح بن الحسين الجعفري.

الأكل من الشجرة، ثم إنه تعالى حن عليهم فمن عليهم بخروجهم من النار، بأن بعث ولده فالتحم في بطن مريم بجسد عيسى فصار إنساناً وإلهاً؛ إنساناً من جوهر مريم، وإلهاً من جوهر أبيه، ثم ما مكّنه من خروج آدم وذريه من النار إلا بموته، وبه يفتدي جميع الخلق من الشيطان، وأنه مات بالقتل، ثم عاش بعد ثلاثة أيام، ونزل لجهنم وأخرج منها آدم، وذريته وجميع الأنبياء بزعمهم ..

فهذه عقيدة كفرهم البارد الغثيث، ودينهم المرذول الخبيث، كما مهد لهم أوائل شياطينهم من غير استناد إلى دليل، ولا نقل عن نبي ولا رسول، وحاشا أنبياء الله ورسله من هذه الخسائس المضحكة، والفضائح المهلكة، والتناقض الواضح، فمن المحال أن يكون الخالق الأزلي قد استحال لحماً ودماً، أو يكون له ولد في الأرض أو في السماء، أو يكون قدمه وبقاؤه اللذان لا نهاية لهما محدودين، أو متحيزين، أو منتقلين – كلا بل هو الله الذي لا شبيه له، ولا نظير، تقدس جلاله، وتعالى كماله، على أن يحل في بشر يموت، وكيف وهو الحي الذي لا يموت[1].

ولكن إمام هذا المعتقد الفاسد الذي يعتقده النصارى في صلب المسيح، عليه السلام، تكفيراً لخطيئة آدم، عليه السلام، أو خلاصاً للبشرية، كما يزعمون، نجد سؤالاً ملحاً، وهو ولماذا كان الصلب والفداء بالذات.

ونجد الإجابة على ذلك في مضمون واقع النصارى يرجع إلى أساس واحد كما يقول الأستاذ/ زكي شنودة : " إن من صفات الله العدل والرحمة، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم، عليه السلام، بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوهم وطرد بها من الجنة – على حد زعمهم – واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله عز وجل بسببها .

وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر، ولم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل والرحمة، إلا بتوسط ابن الله ووحيده الذي بعثه إلى

---

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب أ/ أنسلم تورميدا (عبدالله الترجمان)، ص ١٤٩- ١٥١.

الأرض، فاتحد بالناسوت، ثم قدم نفسه على الصليب فداء للجنس البشري كله وبهذا أخذ العدل حقه، والرحمة مجراها، فنال البشر العفو والغفران"(١).

هذه هي نظرية الصلب والفداء التي تزعمها النصارى، والقول بهذه النظرية – العدل والرحمة – قول فاسد لم يثبت بدليل قطعي مقنع، فهي – أي النظرية، وإن صح التعبير – من بنات أفكار الذين صاغوا معتقدات النصارى بعد المسيح، عليه السلام.

وإلا فأي واحدة من هذه لم تتحقق، فأي عدالة تأخذ الولد بذنب أبيه، أو تأخذ البريء بالمذنب، وإذا كانت العدالة تحققت في زعمهم منذ صلب المسيح، عليه السلام، فأين هي ممن مات قبل المسيح، من أنبياء ورسل وصديقين، وغيرهم من عامة البشر، وأين هي ممن مات بعده، وفيهم رحمة الله للعالمين، سيد الخلق، صلى الله عليه وسلم.

والرحمة كذلك لم تتحقق، لأن الرحمة تقتضي العفو عن الجاني إما كلية وإما تخفيفاً، وقضية الصلب هذه ترك فيها الجاني الحقيقي – على حد زعمهم – وهو آدم، عليه السلام، ثم أخذ مكانه البريئ، وهو ابنه ووحيده – كما يزعمون– فقتله وصلبه، فأين هي الرحمة.

أين كانت رحمة الأب بابنه ووحيده حينما كان – الابن – يلاقي من العذاب ألواناً، ومن السّبّ والشتائم سيلاً، ومن الضرب أحمالاً، ومن البصق أثقالاً، أين كانت هذه الرحمة حين القبض عليه وسوقه كلص، خرجوا عليه بالعصى؟ أين كانت الرحمة والمسامير تدق في يده ساعة الصلب، أليس هذا كذباً وهراء من قوم لا يكادون يفقهون حديثا.

وإذا كان الجميع قبل الصلب والفداء والخلاص ملوثين ومخطئين، فهل كان الأنبياء، وخاصة أولوا العزم من الرسل – منهم سيدنا نوح وإبراهيم وموسى – عليم السلام – والذي بعث سيدنا عيسى نفسه تابعاً لشريعتهم بنص إنجيلهم(٢) – مدنسين

---

(١) تاريخ الأقباط زكي شنودة، ص٢٣٨ بتصرف .

(٢) ورد في متى: (لا تظنوا إني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل) متى: ١٧/٥.

ومخطئين كبقية البشر من أولاد آدم؟ فكيف اختارهم الله، سبحانه وتعالى، لهداية من أرسلوا إليهم، وهم كذلك.

وإذا كان المسيح، عليه السلام، كفر خطايا من سبقه، بما فيهم الأنبياء، فما ذنب اللاحقين عليه، وقد كثرت ذنوبهم وآثامهم وخطاياهم – فهل من مستغفر لهم؟.

ثم أن خطيئة آدم، عليه السلام، والتي لم تزد عن أكله من الشجرة التي نهاه الله عنها، قد غفرها الله له، بدليل قوله سبحانه وتعالى: **(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** [1] (البقرة : ٣٧) .

قال أبو عبيدة الخزرجي :

" إن الذي دعاهم إلى القول بصلب عيسى، عليه السلام، ما أقروا به من الفداء حين قالوا: إن آدم وجميع ولده إلى زمان عيسى، عليه السلام، كانوا كلهم ثاوين – أي ماكثين – في الجحيم، بخطيئة أبيهم آدم، عليه السلام، حتى فداهم عيسى بإهراق دمه عنهم في خشبة الصليب، ثم نزل في ذلك الوقت إلى الجحيم، وأخرج

---

(١) تلقى: بمعنى فهم وفطن أو قبل وأخذ، وكان، عليه السلام، يتلقى الوحي أي يستقبله ويأخذه ويتلقفه، واختلف في تأويل (الكلمات) فقيل هي قوله: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقيل هي: (سبحانك الله لا إله إلا أنت ربي ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم) وقيل رأى – أي آدم – مكتوباً على ساق العرش (محمد رسول الله) فتشفع بذلك، وقيل المراد بالكلمات: البكاء، والحياء، والدعاء، وقيل: الندم والاستغفار، والحزن. وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقول المذنب، فقال: يقول ما قاله أبواه (ربنا ظلمنا أنفسنا). (فتاب عليه) أي قبل توبته، أو وفقه للتوبة، وكان ذلك في يوم عاشوراء يوم جمعة، وتاب العبد، رجع إلى طاعة ربه، وعبد تواب كثير الرجوع إلى الطاعة، ولم قال (عليه) ولم يقل عليهما، وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال : (ولا تقربا هذه الشجرة)؟ الجواب: إن آدم لما خوطب في أول القصة بقوله (اسكن) خصه بالذكر في التلقي، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً فإن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: (وعصى آدم ربه فغوى)، وأيضاً لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر. راجع: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي ج١، ص٣٢٣- ٣٢٥.

منها جميعهم إلا يهوذا الاسخريوطي"[1] ، مع أنه ندم، ورد الثلاثين من الفضة، وخنق نفسه بعد ذلك، فلماذا لم يخرجه [2] .

وقال ، أيضاً:

" أخبرني أيها المغرور[3]: عن موسى بن عمران، كيف تفهم أن الله تعـالى أدخله الجحيم وخلده فيها بعد أن كلمه، واصطفاه وفضله، وبعثه إلى عباده نبياً وهادياً، ولم يكفر بعد ذلك، وكذلك سيدنا إبراهيم، عليه السلام، الذي كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، وقد اتخذه الله خليلاً واصطفاه وفضله بهدايته ونبوته، وأظهر على يديه توحيده.

أخبرني أيها المغرور: من كان الممسك للسماوات والأرض حين كان الله – كما تزعمون – مربوطاً في خشبة الصليب؟ هل بقيا ساكنتين؟ أم كان استخلف عليهما غيره، وهبط هو لربط نفسه في خشبة الصليب، وليوجب اللعنة على نفسه بما قـال في التوراة، ملعون ملعون من تعلق بالصليب[4].

عجباً له! إنه المنتقم والمنتقم منه، والحقود والمحقود عليه، وأنه الظالم يأخـذ نفساً بذنب غيرها، وهو المظلوم، لأنه صلب بذنب غيره. أخبرني: ما الذي أوجـب لآدم، عليه السلام، أن يكون موصوفاً لديكم بهذه الشتائم، وهو أبو البشر، والله قد تاب عليه واجتباه؟" [5] .

---

(١) بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي، تحقيق د/ محمد شامة: ص١٧٤.

(٢) لبيان كذبهم، ورد في الإنجيل أن يهوذا ندم ورد الدراهم فجاء في متى: فلما رأى يهوذا الذي أسلمه نه قد دين، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً: قد أخطأت إذا سلمتُ دماً بريئاً، فقالوا: ماذا علينا، أنت أبصر، فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه" متى: ٢٧/٣-٥.

(٣) المغرور هو: حنامقار العيسوي كان قسيساً يبشر بالمسيحية، وقد دعا أبا عبيدة الخزرجي للـدخول إلـى المسيحية فواجهه أبو عبيدة من حيث لا يدري. انظر كتاب: بين الإسلام والمسحية (مقامع الصلبان) لأبي عبيدة الخزرجي، تحقيق: د/ محمد شامة، ص٤٦، ص٥٤.

(٤) ورد في التثنية : " وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقتل وعلقته على خشبة، فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله ". سفر التثنية: ٢١/٢٢، ٢٣.

(٥) راجع: بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي، تحقيق: د/ محمد شامة، ص١٧٤ – ١٧٧ بتصرف.

هكذا نطقت الأناجيل بصلب المسيح، عليه السلام، فداء للبشرية من أجل خطيئة أبيهم آدم، عليه السلام، بما فيهم الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، ويعني ذلك أن الرسل عندما كانوا ماكثين في الجحيم – على حد زعم النصارى- كانوا مخطئين مذنبين وغير معصومين، ولقد وضح الباحثون أن عقيدة الصلب والفداء عقيدة وهم وضرب خيال، ولا يقول بذلك عاقل، ولا يصدق ذلك إلا كل مجنون مخبول.

كلمة أخيرة تضاف إلى ما سبق من دليل على أن المصلوب غيره، عليه السلام، نعلم عن يقين أن الله، عز وجل، كتب النجاة لسيدنا عيسى، عليه السلام، من هذه المؤامرة الخسيسة الدنيئة، وانسل من بين المجتمعين، ولم يحس به أحد، ما جاء في إنجيل برنابا.

يقول برنابا[1]:

" لما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع وفداً جماً غفيراً، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياماً، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وغيرهم من السفراء البررة أن يأخذوا المسيح، عليه السلام، من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد.

ودخل يهوذا إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع، حتى

---

(١) برنابا كان يهودياً من اللاويين، وكان اسمه يوسف، وقد سماه الحواريون برنابا ومعنى هذه الكلمة " ابن الواعظ" وهو من التلاميذ السبعين على الأرجح، وقد باع جميع ما يملكه من أرض في فلسطين وقدم ثمنها للحواريين ليستعينوا به في الدعوة إلى المسيحية، وهو خال مرقس صاحب الإنجيل، وقد طوف في البلاد كثيراً مع بولس ومرقس بقصد التبشير والدعوة إلى المسيحية، وينسب إليه إنجيل وسفر، ولكن لا تعترف الكنائس الحاضرة بصحتهما. راجع: الأسفار المقدسة، د/ عبدالواحد وافي، ص٨٣، ٨٤ بتصرف.

أننا اعتقدنا أنه يسوع، فأخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا، وأجبنا أنت يا سيدي معلمنا، أنسيتنا الآن"[1] .

ومما هو أدل على ذلك، أيضاً، ما جاء في تاريخ الأقباط للمقريزي، قال: "وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه، رفعه الله إليه، وذلك في الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر من نيسان (ابريل)، وسابع عشر من ذي القعدة، وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة[2]، فصلبوا الذي شبه لهم، وهو تلميذه الخائن يهوذا الإسخريوطي حيث أخذ وصلب وقتل"[3] .

وجاء كذلك في أعمال الرسل: " ولما قال – أي يسوع – هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم، وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض" [4].

ويكفي في ذلك ما جاء من دليل على أن المصلوب غيره، عليه السلام، ولقد نفى القرآن الكريم ذلك كله بقوله، سبحانه وتعالى :

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (النساء: ١٥٧، ١٥٨)

وإذا كان مما سبق قد دل على أن المسيح وحده هو المعصوم دون بقية الأنبياء الذين أخرجهم من الجحيم، نرى على الجانب الآخر من نفس الأناجيل أن المسيح، عليه السلام، كان غير معصوم ودليل ذلك:

ما تدعيه الأناجيل كذباً أن المسيح، عليه السلام، كان أكولاً وشريب خمر، ولم يكن إلا مع العشارين – جباة الضرائب – والخطاة، يقول متى: " جاء يوحنا لا

---

(١) إنجيل برنابا، ص٢٢٢، ٢٢٣، ط/ دار فتح.

(٢) عمر المسيح، عليه السلام حين رفع كان، ثلاثة وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. راجع: الملل والنحل للشهرستاني– تحقيق محمد سيد كيلاني: ج١ ص٢٢٠.

(٣) تاريخ الأقباط للمقريزي، ص٣٥، ط/ دار الفضيلة.

(٤) أعمال الرسل: ١/ ٩ –١٠.

يأكل ولا يشرب، فيقولون فيه شيطان، وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فيقولون: هو ذا إنسان أكول وشرِيب خمر، محب للعشارين والخطاة"[1]، ومع أن يوحنا المعمدان – سيدنا يحيى بن سيدنا زكريا، عليهما السلام – كان عند اليهود أفضل من سيدنا عيسى، عليه السلام، إلا أنهم قتلوه.

جاء في إنجيل مرقس – موجزاً – " أن هيرودس تزوج هيروديا امرأة أخيه فعارضهما يوحنا المعمدان – سيدنا يحيى عليه السلام – بأن ذلك لا يجوز، فحنقت المرأة عليه وأرادات أن تقتله فلم تقدر. فدخلت ابنتها ترقص في حفل فسر بها هيرودس، وأقسم لها أن يعطيها ما تطلب ولو نصف ملكه.. فطلبت رأس يوحنا المعمدان على طبق، وعلى الفور أرسل هيرودس سيافاً وأمر بقطع رأسه وكان سجيناً، فأتى بها وقد وضعت على طبق. "[2].

وتذكر الأناجيل كذلك أن المسيح، عليه السلام، كان غير بار بوالدته، فيقول متى: " وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته واقفون خارجاً، طالبين أن يكلموه، فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك، فأجاب وقال للقائلين له: من هي أمي، ومن هم إخوتي، ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وأخوتي، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي"[3] .

فهل كان المسيح مع أمه هكذا؟ وهل هذا هو جزاؤها؟ والله عز وجل قد فضلها على نساء العالمين، وجعل، سبحانه وتعالى، إهانة الأم ذنب في جميع الشرائع السماوية، وكذلك شرب الخمر، ولا يغيب ذلك عن علم المسيح، عليه السلام، فالحقيقة أن المسيح مبرؤ من كل عيب، لأنه رسول كريم، ومن أولي العزم من الرسل، وهو الذي نطق في المهد ليبرأ ساحة أمه مما قد وصمها به اليهود وقال: **(وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا)**[4] .

---

(١) انظر متى: ١٨/١١، ١٩.

(٢) مرقس : ١٧/٦-٢٩ .

(٣) متى: ١٢/ ٤٦ -٥٠، وانظر الوحي المحمدي، ص٢٩، ط/ المنار ١٣٥٢هـ.

(٤) مريم: ٣٢.

وهكذا كانت عصمة الأنبياء في العهدين القديم والجديد وقد علمنا من خلال ذلك أن الأنبياء غير معصومين بالكلية، والنبوة عندهم قائمة على المكر والخداع والغش والكذب، وما برؤا ساحة نبي قط، هذا إلى إضافة إلى ما جبلوا عليه من عناد وكفر وتكذيب وقتل للأنبياء، فأين هي العصمة عندهم[1].

هذا ما كان يتصل بالمبحث الثاني: مفهوم العصمة عند اليهود والنصارى، وعلمنا من ذلك أن الأنبياء – صلوات الله عليهم – ليسوا بمعصومين عندهم بل كانوا زناة، وأولاد زناة وغشاشين وكذبة – وحاشاهم، صلوات الله عليهم، من هذا الادعاء الكاذب – حتى المسيح، عليه السلام، الذي أدعت عليه النصارى أنه إله وابن إله كان عندهم أكولاً وشريب خمر وغير بار بوالدته، وهذا ما كذبه القرآن الكريم، كما علمنا من قوله تعالى: **(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)** .

هذا ما كان من ناحية العصمة عند اليهود والنصارى، لنرى بعد ذلك في المبحث الثالث الآتي تحمل الأنبياء والرسل، وصلوات الله عليهم، للرسالة وأدائهم لها، وذلك في مضمون قوله تعالى: **(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)** [2] .. وقوله سبحانه: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)** [3]. ومن واقع ذلك يدور الحديث حيث أن الذي يجري على نبي يجري على الكل.

المبحث الثالث: في التحمل والأداء .

تمهيد :

إن الله عز وجل بعث النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط، قال سبحانه وتعالى :

---

(١) يقول الأستاذ/ محمد غربال: العصمة في الكنيسة المسيحية، القول بأن الكنيسة معصومة من الخطأ في أمور الدين الجوهرية، بناء على كلام المسيح: " ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" متى: ٢٨/ ٢٠. يرى الإرثوذكس أن العصمة للكنسية في جملتها، ويرى الكاثوليك أنها مقصورة على البابا حيث أنه الرئيس الأعلى للكنيسة في الشئون الدينية، دون أن يكون لذلك صلة بحياته الخاصة، أما البروتستنت فينكرون العصمة جملة. راجع الموسوعة العربية الميسرة لمحمد شفيق غربال، ج٢، ص١٢١٦، ط/ دار الجيل.

(٢) المزمل: ٥

(٣) المائدة: ٦٧

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (البقرة : ٢١٣)

فكان إرسالهم هداية للحق، وكشفاً عن الصواب، وإماطة للثام عن وجه الدنيا، وتوضيح الغاية من خلق الله تعالى للناس، وبيان من الحق للخلق ما يفعلوه أو لا يفعلوه، وثواب الله لهم على الخير وعقابه لهم على الشر، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، قال عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) (طه : ١٣٤، ١٣٥)

فالسعادة كل السعادة في إتباع المرسلين والشقاوة كل الشقاوة في البعد عنهم والصد عن سواء السبيل.

ولم يكن اختيار المرسلين خبط عشواء أو جزافاً من غير حكمة أو تقدير، حاشا لله وكلا، ولم يكن بقبليه أو اختيار لعصبية، فهذا اختيار البشر للبشر، أما الخالق، تبارك وتعالى، البارىء المصور والعليم الحكيم، اختار رسله من خير خلقه، واصطنعهم سبحانه وتعالى على عينه، أخلاهم من الأوجاع المقعدة، والأمراض المنفرة، وجملهم بالجمال الباهر، والنور الظاهر، وأعدهم سبحانه إعداداً يتلائم مع بعثتهم، ووهبهم قوة تتفق مع ثقل ما يوضع عليهم.

فالنبوة هداية واجتباء، واصطناع واصطفاء، يختار الحق سبحانه وتعالى لها من خلقه خيرهم، ومن الناس أحسنهم وأجملهم، وأصدقهم وأبينهم، وأعلمهم وأحكمهم، وأقواهم في دين، وألطفهم في لين، وأكرمهم على الناس خلقاً وخلقا، لهم عقول حليمة، وقلوب سليمة، ونفوس صافية، وعهود وافية وأمانة محفوظة، يخفرون الذمم ويعظمون الحرم.

فإذا اختارهم، سبحانه وتعالى، لرسالته بعد ما سبق لهم من جمال إعداد، وهبهم سبحانه نور النبوة والإمداد، فأنزل عليهم قوله، وأرسل إليهم وحيه، فزادهم نور النبوة جمالاً، وزادهم سناء وصفاء، فأحسست إذا جالستهم أنك مع السماء وأنت في الأرض، وأنك مع النور حين تجلس إلى بشر من طين يوحى إليهم، زاد بهاؤهم قربهم من ربهم، وجمالهم حسن طلعة الخالق لهم بكلامه ووصاله، وكل هذا بفضل الله تعالى لا بسابق وعد أو حساب، قال تعالى: **(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** (آل عمران: ٧٤) .

وتلك قاعدة النبوة واختيارها، فالنبوة فيض اصطفاء الله تعالى لعبده واختياره لرسله، حتى يقوموا بالدعوة عنه لعباده، ويهدوهم به الصراط المستقيم، فالسماء تفاجيء النبي بالوحي من غير ترقب منه ولا انتظار، فكم طالب للنبوة حرمته السماء وجعلته منها محروماً، وكم من نبي فاجأه الوحي من غير عدة منه أوجدة، فجاءه الوحي من حيث لا يحتسب، فناداه من الغار أوفى الغار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والنبوة مع أنها فيض السماء يتنزل الله سبحانه بها على من يشاء من خلقه، ونورها الذي يهبط على من يشاء ويختار، فقد جعل العلماء أساساً لهذا الاختيار المطلق، وقاعدة لاختيار الله من يشاء من خلقه في قوله سبحانه وتعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (الانعام : ٨٣)

ثم قال سبحانه بعد أن ذكر جملة من الأنبياء عليهم السلام .

(وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٨٨) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام : ٨٦- ٩٠)

فقد ذكر سبحانه وتعالى للأنبياء، عليهم السلام عدة أوصاف :

أولاً: هم أفضل العالمين، وتلك رتبتهم ودرجتهم .

ثانياً: الاجتباء والاهتداء، وهذه قاعدة إعدادهم للرسالة.

ثالثاً: إيتاء الكتاب والحكم والنبوة: وهذه قاعدة إمدادهم برسالته ووحيه.

ولو تتبعنا جملة الأوصاف لهم في كتاب الله عز وجل لوجدناها تدور في رحى تلك الثلاث، ولا تخرج عن نطاق التحمل والأداء .

أما الأفضلية: فبنص قوله تعالى : **(وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)** وذلك بعد أن ذكر جملة من الأنبياء منهم: سيدنا نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس وإسماس واليسع ويونس ولوطا، صلوات الله عليهم أجمعين[1].

وأما قاعدة الاجتباء: فهي أن يختار الله عز وجل نبيه من أوسط قومه حسباً ونسبا، وأكرمهم خلقا، وأجملهم خلقا.

ولقد جاء في القرآن آيات تعبر في وضوح عن هذا الحسب الرفيع والجاه العريض، فأخبر سبحانه وتعالى عن سيدنا لوط عليه السلام في قوله تعالى: **(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)** [2] .

يقول ابن كثير: " يقول الله تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام، إن لوطاً توعدهم بقوله: (لو أن لي بكم قوة) أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث عن أبي

---

(١) الآيات من سورة الأنعام: ٨٣- ٨٦ - تقول: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ). فسيدنا إبراهيم خليل الرحمن من نسل سيدنا نوح، عليه السلام، وكل ما ذكر من الأنبياء في هذه الآية من نسل سيدنا إبراهيم، فسيدنا إسماعيل ابنه الأكبر، وهو الجد الخمسين لسيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وهو يكبر عن أخيه سيدنا إسحاق بأربع عشر سنة، غير أن سيدنا لوطا، عليه السلام، هو ابن هاران أخ سيدنا إبراهيم، عليه السلام.

(٢) سورة هو، آية ٨٠.

هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد – يعني الله عز وجل – فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه" فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وبشروه أنهم لا وصول لهم إليه"[١] .

يقول ابن خلدون :

" من علاماتهم أن يكون الرسول ذو حسب في قومه، وفي الصحيح " ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه – وفي رواية منعة من قومه – وقول هرقل لأبي سفيان، وقد سأله عن نسب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم، ومعناه أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه من أذى الكفار، حتى يبلغ رسالة ربه، ويتم مراد الله تعالى في إكمال دينه وملته"[٢] .

ولو نظرنا في قول سيدنا لوط، عليه السلام، لرأينا أن ما حمله على ذلك القول والالتجاء إلى الله تعالى إلا من عتو القوم وفساد أخلاقهم، وتحمله أمر تبليغ الرسالة لله رب العالمين.

أما في النسب: فأنسابهم طاهرة محفوظة مرفوعة، فهم أوسط الناس نسبا، وأعلاهم شرفاً ومنزلة، خاصة وقد حفظ الله، عز وجل، لهم الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية، على أساس نكاح صحيح فما خالطهم رجس ولا دنس.

يقول ابن خلدون :

" اعلم أن الله، سبحانه وتعالى، اصطفى من البشر أشخاصا خصهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده، يعرفونهم بمصالحهم

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٤٥٣، وكذلك المحرر الوجيز لابن عطية، ج٧، ص٣٦٣. والحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة يوسف، رقم الحديث، ٣١٢٦، ٣١٢٧. وفي رواية من الحديث: " في ذروة من قومه" . والثروة الكثرة والمنعة.

(٢) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د/ عبدالواحد وافي، ج١، ص٣٤٨، وانظر كذلك الدعوة الإسلامية للدكتور/ محمد يوسف حموده.

ويحرضونهم على هدايته، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلونهم على طريق النجاة" [1].

وهذا هو الأصل في الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم أجمعين - الحسب والنسب - هو الأساس في قاعدة الاختيار والاصطفاء.

وأما قاعدة الإمداد: فهي تتمثل في إيتائهم الكتاب والحكم والنبوة، وهذا يعني تحملهم أعباء الرسالة وأدائها على أكمل وجه، كما أمرهم الحق سبحانه وتعالى، دون تقصير مهما واجهوا من عناد أقوامهم وسخريتهم واستهزائهم، وهذا من أبرز خصالهم، صلوات الله عليهم.

تحمل الأنبياء والمرسلين أعباء الرسالة :

إن تحملهم لأعباء الرسالة صبغة موحدة فيهم، صلوات الله عليهم، لأنها أساس دعوتهم، وأصل عقيدتهم، وقد تحلوا بها حتى لا تضيع الفائدة من البعثة التي من أجلها أرسلوا، والمتتبع لآي القرآن يجد فيه مدى تحملهم لأعباء الرسالة وأدائها، ونخص بالذكر من الأنبياء الكرام، صلوات الله عليهم، على سبيل المثال:

١- سيدنا نوحا عليه السلام

مكث، عليه السلام، في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، يقول لقومه: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [2] فما كان جواب قومه له إلا أن قالوا: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ**﴾ [3] .. وأكثر من ذلك قالوا: ﴿**لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**﴾ [4] .

وقد بين، عليه السلام، مدى استمراريته وعدم توانيه لحظة في تبليغ رسالته لربه، حتى إنه بين كيفية دعوته التي مزج فيها بين السرية والجهرية فقال:

---

(١) التوحيد الخالص، الإمام/ عبدالحليم محمود، ص١٩٦، نقلاً عن ابن خلدون.

(٢) سورة المؤمنون: ٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٢٥.

(٤) سورة الشعراء: ١١٦.

(رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) (١)

وبعد أن بين لهم طريق الهداية وسبيل الرشاد فما كان منهم إلا النفور والضلال فشكا سيدنا نوح ذلك لربه وهو أعلم بهم سبحانه فقال:

(رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) (٢) .

ولما يئست الدنيا من صنيعهم، ولم يخرج منهم ولا من أولادهم منفعة أو نصحا دعا عليهم النبي الكريم بعد طول مقامه معهم وبينهم فقال:

(رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (٣) .

فهل ترى أن سيدنا نوحاً عليه السلام على مدى عمره المديد قصر في تحمل الرسالة، أو تواني في أدائها لقومه، كلا .. إنها الأمانة التي تحلوا بها وحملوا أعباءها وأودوها على أكمل وجه، سواء طال بهم الأمد أو قصر، ومهما واجهوا من عناد أقوامهم أو سخريتهم أو تعذيبهم، حتى ولو ألقوا في النار.

٢- سيدنا إبراهيم عليه السلام :

خليل الرحمن هو الذي قال الله، عز وجل، في شأنه :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (النحل : ١٢٠- ١٢٢)

---

(١) سورة نوح: ٥-١٠ .

(٢) سورة نوح: ٢١-٢٤.

(٣) سورة نوح: ٢٦، ٢٧.

فذكر سيدنا إبراهيم في مقام الإمامة أولاً، ثم ذكر له الهداية والاجتباء، ثانياً، ثم ذكر له بعد ذلك الفضل والعطاء، وعبر عن ذلك بآتيناه ثالثاً.

فبدأ سيدنا إبراهيم، عليه السلام، من صغره كارها للأصنام، وما أن آتاه الله رشده وبلغ أشده حتى دعا قومه إلى عبادة الله تعالى وترك عبادة الأصنام، وبين لهم بكل الأساليب والحجج أن عبادتهم للأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لنفسها موتاً ولا حياة ولا نشورا، وأن الله الواحد الأحد المتصرف في الكون كله هو النافع والضار، وبيده الأمر كله، وهو على كل شيء قدير، ولكنهم لم يستجيبوا لدعائه، ولم يستمعوا لندائه، فاستخدم بعد ذلك طريق الكيد لأصنامهم، لعلهم يفيقوا ويرجعوا عن ضلالهم، قال تعالى:

" **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)** (الأنبياء : ٥١– ٥٨)

فرجعوا من لهوهم وسألوه عمن فعل ذلك بآلهتهم فقال ساخراً منهم مستهزءاً بأصنامهم: (**فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**) ثم عابهم وعاب آلهتهم قائلاً : (**أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) [١] فما كان من القوم إلا أن قالوا: (**حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**) [٢] .

فكانت عناية الله تبارك وتعالى به، وحفظه ورعايته له أن أمر النار بأن تفقد خاصيتها في الإحراق، بل وأن تكون برداً وسلاماً عليه، عليه السلام، فقال سبحانه :

---

(١)الأنبياء: ٦٦، ٦٧.

(٢)الأنبياء: ٦٨.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) [١].

وهكذا كانت حياة الخليل، عليه السلام، ودعوته إلى الله، عز وجل، في وسط قوم شغفوا بصناعة الأصنام وعبادتها، وما فتر عن تبليغ رسالته التي تحمل أعباءها وكلف بأدائها سواء كان بين قومه وعشيرته الذين ألقوه في النار – ولم تأكل النار منه إلا وثاقه – أو كان متقلباً بها بين البلاد والعباد على مدى عمره المديد الذي بلغ الخامسة والسبعين بعد المائة.

٣- سيدنا يوسف عليه السلام :

هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، صلوات الله عليهم أجمعين، وإن لم يكن من أولي العزم إلا أن حياته كانت تحمل وصبر ورضا بأمر الله، حتى يبلغ الغاية التي من أجلها أعده، وهي الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد.

فما أن شب الصديق وكبر ورأى رؤياه وقصها على أبيه حتى امتلأ قلب أبيه بحبه، وامتلأ قلب إخوته كراهية وقسوة وحقداً، فاستدرجوه ليلعب معهم، واستعطفوا أبيهم ليظفروا به، فأخذوه وما أن غابوا عن وجه أبيهم حتى طرحوه أرضاً وضربوه وعذبوه وكادوا أن يقتلوه كما دبروا وحاكوا، إلا أن أحدهم قال: (لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) (يوسف : ١٠)

فتكالبوا عليه وألقوه في غيابة الجب، ورجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون، وادعوا كذباً أن الذئب أكله، فأفجعوا أبيهم على فقد أخيهم، ويعلم سيدنا يعقوب عليه السلام، أن ذلك مكيدة دبرها إخوة يوسف للخلاص منه بدليل قوله تعالى: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) [٢] .

وقد قال يا له من ذئب حنون قطع جسد يوسف ولم يقطع قميصه، ولم يملكا عليهما السلام – سيدنا يوسف وأبوه – إلا الصبر والاستسلام لأمر الله، وبذلك وضع

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة يوسف: ١٨.

بنو إسرائيل أولاد النبي الكريم يعقوب، عليه السلام، العداوة والبغضاء والكراهية لبني البشر. فتحمل سيدنا يعقوب، عليه السلام، محنته من أبنائه، كما تحملها سيدنا يوسف، عليه السلام، من إخوته، ونجاه الله تبارك وتعالى بعد ذلك من الجب بمرور قافلة تجارية، فشروه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا – أي إخوته وقد قال كبيرهم ليوسف لو رأيتك مرة ثانية لقتلتك – فيه من الزاهدين، وتمر الأيام بمحنة عظيمة على سيدنا يوسف، عليه السلام، فيفضل فيها دخول السجن على الحرية وطيب العيش، إلى أن تم مراد الله عز وجل في إعداده حتى مكن له في الأرض، كما قال تعالى: **(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (يوسف : ٢١-٢٢).**

٤- سيدنا موسى عليه السلام :

بدأت عناية الله به في صغره ليتحقق قوله تعالى: **(أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**[1] حيث قد خافت أمه عليه من الأحداث التي كان يباشرها الفرعون في تقتيل الأبناء، فأوحى الله، عز وجل، إليها بقوله: **(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص : ٧)**

ولما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما، وبدأ سيدنا موسى، عليه السلام، بتحمل أمر الدعوة إلى الله، عز وجل، بقوله سبحانه وتعالى :

(يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

(الأعراف: ١٤٤، ١٤٥)

صنعه الله عز وجل على عينه، واصطفاه برسالته، واجتباه بكلامه، فواجه فرعون بآيات الله وبيناته لينزل من عليائه وكبريائه، فدعاه إلى عبادة الله الواحد

---

(١) سورة طه : ٣٩.

الأحد، رب السموات والأراضين، ورب المشارق والمغارب، فما كان من الفرعون إلا العناد والنفور، وكلما دعاه سيدنا موسى، عليه السلام، ازداد طغيانا، حتى وصل به الأمر إلى أن قال: **(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)** (القصص : ٣٨)

فالآية الكريمة التي سبق ذكرها : (يا موسى إني اصطفيتك) جمعت بين التحمل والأداء، تحمل سيدنا موسى أعباء الرسالة أولاً مع الطاغية المتجبر (فرعون) ثم مع قومه (بني إسرائيل) ثانيا، فأما مع الفرعون فقد دعاه النبي الكريم مراراً وتكراراً، فلم يزده الدعاء إلا علواً واستكباراً، حتى كانت نهايته المحتومة أن أغرقه العزيز الجبار ومن معه في البحر، ونجى الرحيم الرحمن سيدنا موسى ومن معه من بني إسرائيل من الغرق، وما كاد يفيق النبي الكريم من عناد فرعون وعتوه، حتى أتى بنو إسرائيل لينغصوا عليه حياته.

وهنا يتجلى التحمل والأداء لسيدنا موسى، عليه السلام، مع قومه خاصة بعد أن أنجاهم الله من الغرق، فما أن خلصوا من البحر ومن الغرق حتى رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم قالوا لنبيهم موسى ورمال البحر ما زالت عالقة بأرجلهم.

(قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللّـهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠)

وما أن وصلوا أرض سيناء حتى أعلنوا العصيان والتمرد على سيدنا موسى وأخيه هارون، عليهما السلام، في كل أمر، واستملحوا حياة الذل والمهانة والاسترقاق مع الفرعون، عن حياة الحرية والنعيم مع سيدنا موسى، عليه السلام، الذي كان سبباً لنجاتهم من العبودية والاسترقاق مع الفرعون وكذلك الغرق، حتى ضاق بهم ذرعاً ومات منهم حسرة وكمداً، صلوات الله عليه وسلامه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

٥- سيدنا عيسى عليه السلام :

لم يكن المسيح، عليه السلام، بدعا عن باقي الرسل في الدعوة إلى الله، عز وجل، فكلهم في الدعوة إلى عبادة الواحد سواء، وشعارهم كلهم واحد وهو إخبار الله عز وجل عنهم، صلوات الله وسلامه عليهم، بقوله سبحانه وتعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(الأنبياء: ٢٥)

فالتوحيد هو دعوة جميع الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، وهذا ما أعلنه المسيح صراحة في قول الله، عز وجل:

(وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) (الزخرف: ٦٣، ٦٤)

" فلقد جاءهم المسيح، عليه السلام، بالبينات الواضحات – كأي رسول مؤيد بالمعجزات – وجاءهم بالحكمة ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه – وقد اختلفوا في كثير من شريعة سيدنا موسى، عليه السلام – ودعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعته فيما جاء به من عند الله، عز وجل، ولم يقل عن نفسه إنه إله أو ابن إله، ولم يشر لا من قريب ولا من بعيد بأية صلة له بربه غير صلة العبودية له سبحانه، وقال لهم هذا صراط مستقيم لا عوجاج فيه ولا التواء وقد نطق بكلمة التوحيد، لا لبس فيها ولا غموض (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) .

ولكنهم اختلفوا فيه شيعاً وأحزاباً بعد أن طال انتظارهم له، ليخلصهم من العبودية، فلما جاءهم بالتوحيد الذي أعلنه، وجاء معه بشريعة التسامح الروحي، نكروه، وشقوا عليه عصا الطاعة، وهموا أن يقتلوه ويصلبوه[1].

وبيان تحمله للرسالة وأدائها أنه، عليه السلام، يصرح في غير موضع من القرآن الكريم أن دعوته كانت لله الواحد الأحد، وأنه لم يكن إلهاً أو ابن إله وأوضح ما في ذلك إجابته على سؤال الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) في ظلال القرآن، الأستاذ/ سيد قطب، ج٥، ص٣١٩٩، بتصرف، ط/ دار الشروق، ط/ ١٩٨٢/١٠م.

(أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (المائدة: ١١٦- ١١٨)

يقول الأستاذ سيد قطب: وهكذا يعلن المسيح صراحة العبودية لله وحده لا شريك له، فليس المسيح ابنا كما تدعي فرقة، وليس إلها كما تدعي أخرى، وليس ثالث ثلاثة كما تدعي فرقة ثالثة، ويعلن أن الله، عز وجل، ما جعله إلا عبداً نبياً لا ولداً ولا شريكاً له، وبارك فيه وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، كما أوصاه بالبر بوالدته والتواضع مع عشريته[1].

فهذا هو الأساس في دعوة المسيح، عليه السلام، والذي من أجله تحمل أمر الدعوة إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وقد شهد المسيح بذلك فقال:

(إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) (مريم: ٣٠- ٣٣)

فدعوة المسيح، عليه السلام، هي كدعوة أي رسول سبقه، وما أتى بتشريع جديد لينقض شريعة التوراة عن أساسها، بل جاء مكملاً وناصحاً ومتسامحاً، وقد أشار إلى ذلك بقوله:

(لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل) [2] .

---

(١) في ظلال القرآن، الأستاذ/ سيد قطب، ج٤، ص٢٣٠٨، ط/١٠، دار الشروق.

(٢) متى: ١٧/٥.

ولما جاءهم المسيح، عليه السلام، بالبينات والدعوة إلى الله، عز وجل، والتسامح – وقد كان اليهود ينتظرونه ليخلصهم من ظلم الاسترقاق والعبودية منذ الأسر الأشوري والبابلي – انقلبوا عليه وعذبوه وضربوه وللحبس والقتل ساقوه.

جاء في الأناجيل الأربعة: أن اليهود أوغروا قلب الحاكم الروماني على المسيح عليه السلام، فقبضوا عليه وساقوه كلص خرجوا عليه بالعصي، وضربوه وبصقوا في وجهه، ووضعوا عليه إكليلاً من الشوك، وذهبوا به إلى الحاكم، وصمموا على أن يصلب، فتبرأ الحاكم بيلاطس من دمه، فقالوا دمه علينا وعلى أبنائنا، فصلبوه وقتلوه كما تزعم الأناجيل[1].

والقرآن يكذب حادثة القتل والصلب فيقول سبحانه:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (النساء: ١٥٧، ١٥٨)

٦- سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

ظننت أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد جمع محاسن الأنبياء والرسل فقط، غاب عني أنه صلوات الله عليه وسلامه كما جمع محاسنهم جمع كذلك كل ما تحملوه من أعباء الرسالة حتى أدوها، كما أرادها الله، عز وجل، منهم، فلقد أكمل الله عز وجل مسيرتهم بحبيبه، صلى الله عليه وسلم، تصديقاً لقوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) [2]

فبأبي هو وأمي صلوات الله عليه وسلامه ما من يوم مر عليه من يوم مبعثه على مدى ثلاث عشرة سنة في مكة إلا وقد تحمل من الأذى ما يفوق الوصف ومن العذاب ما يكل به أحمال البعير.

---

(١) متى: ٢٧/٢٠-٢٦، مرقس: ١٥/١٠-١٦، لوقا: ٢٣/٢٠-٢٤، يوحنا: ١٩/١٣-١٩، وكله بتصرف وإيجاز.

(٢) سورة المائدة: آية٣.

فمن يوم أن جمعهم على الصفا لينذرهم كما أمره ربه بقوله: " وأنذر عشيرتك الأقربين"[1] وقال لهم: " أتدرون لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا قط، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، لحظتها قال عمه أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزل قوله تعالى: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [2] ساعتها انقلبت الموازين رأساً على عقب، وتفرق الجمع من حوله بعد أن واجهوه بما يكره، فبعد أن كان عندهم الصادق الأمين، صار عندهم ساحر وكاهن وكاذب ومجنون.

وبدأت قريش تتوافد على عمه أبي طالب ليبعده عن دعوته مرة بعد المرة، وما كان من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا أن قال لعمه: " يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه"[3].

وبعد ذلك: توافدوا عليه ليثنوه عن دعوته بكثير من الإغراءات المال الجاه والسلطان، فيقول لهم: " ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر ربي حتى يحكم الله بيني وبينكم"[4] ما أعظم هذا التحمل وما أجمل هذا الأداء.

وتأتي المقاطعة ويدخل النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، في حصارها ثلاثة أعوام، تتحالف فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يناكحوهم، ولا يخالطوهم، ولا يقبل منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، حتى يسلموا لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليقتلوه، ولا يكاد ينفك هذا الحصار حتى يموت أبو طالب، وبعده بقليل تتوفى السيدة خديجة، رضي الله عنها، ويسمى هذا العام

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٢) الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري، ص٩٣، بتصرف، ط/ دار الوفاء، ١٩٩١م.

(٣) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، ص١١٧، بتصرف، ط/ دار الريان، ١٩٨٧م.

(٤) فقه السيرة الدكتور/ محمد سعيد البوطي، ص١٢٤، ط/ دار الفكر، بيروت.

بعام الحزن، فيشتد عذاب قريش على رسول الله، صلى الله عليه وسلم حتى يعبر عن ذلك، صلوات الله عليه وسلامه، بقوله: " ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب"[1] .

ويهاجر النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، إلى الطائف ليجد النصير والمعين لدعوته، فوجد أهل الطائف أشد عليه من أهل مكة، فرموه بالحجارة حتى أدمي عقبه الشريف، صلى الله عليه وسلم، وشج رأس سيدنا زيد بن حارثة عدة شجاج، فيجلس النبي تحت شجرة كرم ويدعو الله، عز وجل، وهو أعلم به، فيقول: " اللهم إليك اشكر ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بل علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"[2].

ويرجع النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى مكة، ويدخل في جوار المطعم بن عدي، ليجد بعد بيعتا العقبة أن أربعين قبيلة من قريش، تتآمر عليه ليقتلوه وهذا آخر ما في كنانتهم .

قال تعالى :

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال : ٣٠)

هذا جانب من حياة النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، في تحمله مواجهته بالدعوة لأهل مكة، ناهيك عما كان في المدينة من مواجهته بالدعوة للمنافقين واليهود، ورأينا في ذلك أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يثنه شيء أبداً عن تبليغ رسالات ربه.

---

(١) فقه السيرة، الشيخ/ محمد الغزالي، ص١٣٢، والحديث ضعيف أخرجه ابن إسحاق، ج١، ص٢٥٨ عن عروة بن الزبير.

(٢) الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص١٤٩، ط/ دار الوفاء.

وإذا كان النبي، صلّى الله عليه وسلم، هو خاتم الأنبياء والمرسلين إلا أنه واحد من جملتهم، صلوات الله عليهم، وقد علمنا أن الذي يجري على نبي يجري على الكل، فتحملهم، صلوات الله عليهم، سواء كان في التلقي أو الأداء لا يخرج عن نطاق القواعد الأساسية التي ذكرناها وهي (أعدادهم، واختيارهم، وإمدادهم) فهل ترى بعد ذلك عدم عصمتهم في أي واحدة من هذه القاعدة.

أو ترى أنهم غير معصومين بعد أن قال الله، عز وجل، في حقهم جميعا

(وكلا فضلنا على العالمين) (الأنعام : ٨٦)

هذا غير ما قاله سبحانه وتعالى في شأن كل نبي، فعلى سبيل المثال قال في شأن سيدنا إبراهيم عليه السلام: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(النحل: ١٢٠، ١٢١)

ويقول سبحانه وتعالى في شأن سيدنا يوسف

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (يوسف : ٢١، ٢٢)

وفي شأن سيدنا موسى، عليه السلام، يقول سبحانه:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (طه : ٣٩)

ويقول أيضاً (واصطنعتك لنفسي) (طه : ٤١)

وفي شأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول عز شأنه مقسماً على ذلك:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) (الضحى : ٣ – ٨)

ويقول سبحانه وتعالى كذلك في شأنه، صلى الله عليه وسلم :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (الشرح: ١-٤)

هذا ما يجعلنا على يقين من عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، في حال تحملهم لرسالة الله وكلامه عن الله تعالى، وأدائهم إياها لأقوامهم بكل أمانة فهم محفوظون معصومون في هاتين الحالتين، والله تعالى هو الذي تكفل بعصمتهم وحفظهم والعناية بهم، ولنرى في الصفحات التالية الآراء الواردة في عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم عن الذنوب والمعاصي، وأقوال المجيزين ذلك والرد عليهم .

الفصل الثاني : الآراء الواردة في عصمة الأنبياء عليهم السلام عن الذنوب

يتضمن الحديث في هذا الفصل عن مبحثين:

الأول: ذكر بعض الآراء والرد عليها إجمالاً دون تفصيل.

الثاني: الرد على ما ذكره بعض علماء المسلمين من نقاط وشبهات حول هذه العصمة.

المبحث الأول: ذكر بعض الآراء والرد عليها دون تفصيل.

اختلفت الآراء وتعددت الأقاويل حول عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل: إنه لو لم تجب لهم العصمة، صلوات الله عليهم، لجاز أن يكون المحرم والمكروه بالنسبة لهم طاعة، وهذا تناقض في عصمتهم، لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم.

وكون المحرم أو المكروه طاعة يعتبر باطلاً، لما يلزمه من اجتماع النقيضين وهما – الإذن بالشيء من جهة أنه طاعة، وهو وجوب إتباع الرسول في فعل المحرم أو المكروه، وعدم الإذن به من جهة أنه معصية – فكون العصمة منفية عن الأنبياء والرسل قول باطل، وثبت لهم وجوبها، كما أن وجوب عصمتهم ثابتة بالإجماع[1].

وفيما يلي بيان لأبرز هذه الآراء التي وردت في عصمة الأنبياء والرد على الرأي الضعيف منها، وإثبات العصمة لهم، صلوات الله عليهم، سواء كان ذلك قبل النبوة أو بعدها.

رأي المعتزلة والرد عليه:

ذهبت المعتزلة[2] إلى منع صدور المعصية عقلاً إلا في الصغيرة، فإنهم يجوزونها، وحجتهم في ذلك أنهم قالوا: إن في ارتكاب المعصية احتقار عند الناس،

---

(١) العقيدة الإسلامية، د/ الفرت، ص٦٤.

(٢) المعتزلة فرقة كلامية إسلامية ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري، وبلغت شأوها في العصر العباسي الأول، ويرجع اسمها إلى اعتزال إمامها واصل بن عطاء مجلس -- أستاذه الحسن البصري، لقول واصل بأن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، ولا مؤمنا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ولما اعتزل واصل مجلس الحسن البصري، وجلس عمرو بن عبيد إلى واصل وتبعهما أنصارهما، قيل لهم معتزلون أو معتزلة.-

فتنفر الناس عنه، فلا يتبعونه في الأوامر والنواهي، بل يقولون: هو كان يفعل كذا، وكذا، ويأمرنا بكذا، وينهانا عن كذا، فلا يتأتى حكمة الإرسال في إرساله، فيمتنع هذا الإرسال عقلاً.

قلنا: -و الكلام للإمام/ محب الله البهاري – ما ذكرتم مبني على القبح العقلي، أي على أن هذا الإرسال قبيح، وما هو قبيح يمتنع عليه تعالى، والأشعرية[1] منا لا يمنعون قبح هذا الإرسال العاري عن الإتباع، فلا يتم عليهم، وهذا المنع يتأتي منا أيضاً، فإن الخلو عن الفائدة ممنوع، وإنما يلزم ذلك لو كانت الفائدة منحصرة في إتباع من أرسل إليهم، وهو ممنوع، بل يجوز أن تكون الحكمة والفائدة إقامة الحجة عليهم في التعذيب، وهو حاصل، ولو سلم قبح هذا الإرسال العاري عن الفائدة، فلا نسلم الملازمة، وهي لزوم التنفير والاحتقار، لأن بعد صفاء السريرة، وحسن السيرة تنعكس الحال، فيصير موفوراً، فلا تنفير بعد الإرسال، ولا يقر ما كان قبل، بناء على أن المعجزة جاذبة إياهم إلى الاعتقاد، فينعكس الحال البتة، فالمتوارث عنهم عصمتهم عن تعمد الكذب، أيضاً، لدلالة المعجزة على صدقهم، وأما الكذب غلطاً فمنع الجمهور صدوره عنهم، عليهم السلام.

يقول – أي الإمام البهاري: وفي بعض المعتبرات أن الأنبياء، عليهم السلام، معصومون عن حقيقة الكفر، وعن حكمه بتبعية آبائهم، وعلى هذا فلابد من أن يكون تولد الأنبياء بين أبوين مسلمين، أو يكون موتهما قبل تولدهم، لكن الشق الثاني قلما يوجد في الآباء، لا يمكن في الأمهات، ومن هنا بطل ما نسب بعضهم من الكفر إلى

=وامتازت هذه الفرقة بحرية الفكر والاعتداد بالعقل وقوة الحجة. راجع في ذلك: الموسوعة العربية الميسرة لشفيق غربال، ج٢، ص١٧١٨، ط/ دار الجيل.

(١) الأشاعرة: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري مؤسس هذا المذهب، وأصبح اسم الأشعرية علماً على هذه الفرقة التي تعتنق هذا المذهب، وقد أصبح مذهب الأشعرية مذهباً لأهل السنة، وأصحاب الحديث، ولا سيما الشافعية، وانتشر هذا المذهب في مختلف البلاد الإسلامية. انظر الموسوعة العربية الميسرة لشفيق غربال، ج١، ص١٦٦، ط/ دار الجيل، وانظر كذلك الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، تحقيق عباس صباغ، ص١٥، ١٦، ط/ دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤.

أم سيد العالم مفخرة بني آدم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، وذلك لأنه حينئذ يلزم نسبة الكفر بالتبع، وهو خلاف الإجماع، بل الحق الراجح هو الأول"[1] .

يقول الزركشي: " والمختار امتناع ذلك عليهم، وأنهم معصومون من الصغائر والكبائر جميعاً، وعليه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، وأبو بكر بن مجاهد"[2].

ويقول ابن حزم: " ذهب جميع أهل الإسلام من أهل السنة، وبعض المعتزلة، والنجارية، والخوارج، والشيعة، إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلاً معصية بعمد، لا صغيرة ولا كبيرة، وهو قول ابن مجاهد الأشعري شيخ ابن فورك والباقلاني، وهذا القول هو الذي ندين الله تعالى به، ولا يحل لأحد أن يدين بسواه"[3] .

رأي الشيعة[4] والرد عليهم:

الشيعة لا يجوزون عقلا ذنباً عليهم مطلقاً، سواء كان صغيرة أو كبيرة، وهم مع قولهم بهذا يجوزون عليهم الكفر تقية، عقلاً وشرعاً، قبل النبوة وبعدها.

وهذا الرأي في غاية الخطأ، فإنه لو جوز هذا الأمر العظيم عليهم لما بقي الأمان في أمر التبليغ، وهو ظاهر، كيف وما من نبي إلا بعث بين أظهر أعدائه؟ فلعله كتم شيئاً من الوحي خوفاً منهم، وهم يرون أن رسول الله، صلى الله عليه وآله

---

(١) انظر فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت لمحب الله البهاري، تحقيق عبدالله محمود عمر، ج٢، ص١١٨، ١١٩، ط/ دار الكتب العلمية، وكذلك المحصول في علم الأصول للرازي، تحقيق د/ طه العلواني، ج١، ص٣٤٣ نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، وكذلك نهاية السول في شرح منهاج الأصول للقاضي ناصر الدين البيضاوي، تأليف الشيخ جمال الدين الأسنوي، ج٣، ص٣.

(٢) انظر البحر المحيط للإمام بدر الدين بن بهادر (الزركشي)، ج٤، ص١٧١، ط/ دار الصفوة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري، ج٤، ص٢، ط/ دار المعرفة بيروت.

(٤) الشيعة: هم الإتباع والأنصار، وأطلق هذا اللفظ خاصة على الذين يتولون الإمام عليا وأهل بيته، رضي الله عنهم، وقد اختلفوا في وراثة الإمامة بين ولد الإمام علي، فمنهم من ساقها من ولده إلى أشخاص لا يمتون إليه بالقرابة، ومن فرق الشيعة الإثنا عشرية والذين يلقبون بالإمامية والجعفرية ومنهم الزيدية، والاسماعيلية، ومتى ما أطلق الشيعة فإنه يراد بهم الشيعة الاثنى عشرية، وهم الذين جعلوا الإمامة في علي وذريته في اثنى عشر إمام. وللشيعة شأنهم في تاريخ الحياة السياسية والفكرية في الإسلام. راجع الموسوعة العربية الميسرة لشفيق غربال، ج٢، ص١١٠٦، ط/ دار الجيل. وكذلك الملل والنحل للشهرستاني، ج١، ص١٤٦، تحقيق أ/ عبدالعزيز الوكيل، ط/ دار الاتحاد العربي، ١٩٦٨م.

وأصحابه وسلم، ما عاش من وقت البعثة إلى وقت الموت إلا في أعدائه، ولم يكن له، صلى الله عليه وسلم، قدرة لدفعهم مدة عمره، وكان يخاف منهم، فاحتمل كتمانه، صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من الوحي، فلا ثقة بالقرآن وغيره.

وقد استدلوا بنفرة الناس على العصمة عقلاً، وهو لو تم لدل على عصمتهم عن المعصية مطلقاً، فضلاً عن الكفر عند الخوف تقية، للزوم نفرة الناس عنهم، بل النفرة ههنا أشد لإيهامه الجبن الذي هو أعلى النقائص(١).

رأي بعض أئمة أهل السنة :

يرى بعض العلماء أن الأنبياء معصومون من الكبائر، وليسوا معصومين من الصغائر، وقالوا: إن هذا قول أكثر علماء السنة وأغلب الطوائف، وهو قول أكثر أهل الكلام. وذكر أبو الحسن الآمدي: إن هذا قول أكثر الأشعرية(٢)، وقول أكثر أهل التفسير والحديث والفقه(٣)، ولم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول(٤).

---

(١) انظر: فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت للإمام محب الله البهاري، ضبطه وصححه عبدالله محمود عمر، ج٢، ص١١٨بتصرف يسير، ط/ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى، انظر كذلك: المحصول في علم الأصول للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق د/ طه جابر العلواني، ج١، ص٣٣٩- ٣٤١، بتصرف، الطبعة الأولى، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، وكذلك: نهاية السول في شرح منهاج الأصول، للقاضي ناصر الدين البيضاوي، تأليف الشيخ جمال الدين الأسنوي، ج٣، ص٣، وكذلك محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للإمام الرازي، راجعه وعلق عليه طه عبدالرؤف سعد، ص٣١٩، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ط/ دار الكتاب العربي.

(٢) يعني أن الأشعرية لا يقرون بعصمة الأنبياء من الصغائر، في حين أن الإمام الغزنوي يشير بأن الأشاعرة يقرون بعصمة الأنبياء عن كل الذنوب بعد النبوة ما عدا السهو والخطأ. انظر أصول الدين للإمام جمال الدين الغزنوي، تحقيق د/ عمر الداعوق، ج١، ص١٣٦، ط/ دار البشائر الإسلامية الأولى ١٩٩٨م، بيروت، وكذلك أصول الدين للإمام البغدادي، ص١٦٧.

(٣) وفي هذا إشارة إلى أن أهل التفسير والفقه لا يقرون بعصمة الأنبياء من الصغائر، والقرائن توضح خلاف ذلك، فيقول ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز نقلاً عن الإمام الطبري " وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ومن الكبائر والصغار التي فيها رذيلة، ثم يقول ابن عطية: " والذي أقول به إنهم معصومون من الجميع"، ويقول الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كالكبائر .. " انظر تفسير القرطبي، ج١، ص٣٠٨، ط/ دار إحياء التراث العربي، وانظر كذلك المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية، ج١، ص٤٩١، ط١.

(٤) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج٤، ص٣١٩.

ويكاد يكون هناك إجماع عند الإمام ابن تيمية في فتاويه علـى أن الأنبيـاء ليسوا بمعصومين من الصغائر، ومعصومون من الكبائر، ولقد استدل الإمام على ما ذهب إليه ببعض الشواهد والأدلة، منها استدلاله بمعصية أبينا آدم، ودعوة سيدنا نوح ربه لابنه، وقتل سيدنا موسى للقبطي المصري، وتسرع سـيدنا داود فـي الحكـم، وتحريم النبي– صلى الله عليه وسلم وعلى جميع إخوانه النبيين والمرسلين – لشرب العسل، إلى غير ذلك من الأدلة[1].

يقول – أي الإمام ابن تيمية – عند تفسير قوله تعالى: " **لقد تـاب الله علـى النبي والمهاجرين والأنصار**[2]" : "التوبة إنما تكون برفع الدرجات، وعظم الحسنات، والتوبة لا تكون نقصاً بل هي من أفضل الكمالات، وهي واجبة على الخلق، وقد أخبر الله عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار، عن آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى وغيرهم، فقال آدم: (**ربنا ظلمنا أنفسنا**) [3] .. وقال نوح : (**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَـا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**) [4] .. قال إبراهيم : (**ربنا اغفر لي ولوالدي**) [5] موسـى: (**فَلَمَّـا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ**) [6] وفي الصحيحين كان صلى الله عليه وسلم يقول فـي افتتاح الصلاة: " اللهم باعد بيني وبين خطاياي"[7] يقول: لا تكون التوبة إلا عن ذنب، والاستغفار كذلك"[8] .

---

(١) انظر مجموع فتاوى الإمام بن تيميه رحمه الله، ج٤، ج١٠، ج١٥، ج٢٠. وسوف يأتي الرد علـى ذلـك بالتفصيل، وفيه إن شاء الله تعالى رد دعوى ابن تيميه في عدم عصمة الأنبياء من الصغائر، وقد أفردنا في الرد على ذلك فصلاً خاصاً به، والله المستعان.

(٢) التوبة: ١١٧.

(٣) الأعراف: ٢٣.

(٤) هود: ٤٧.

(٥) إبراهيم: ٤١.

(٦) الأعراف: ١٤٣.

(٧) الحديث: رواه البخاري عن كتاب الأذان، باب ٨٩ رقم الحديث، ٧٤٤، ومسلم في كتـاب المـساجد رقـم ٥٩٨.

(٨) مجموع الفتاوى لابن تيميه، ج١٥، ص٥١– ٥٤ بتصرف.

ومن هذا يتبين أنه – رحمه الله – يثبت الخطأ والذنوب على الأنبياء، وأنهم غير معصومين من الصغائر، ويؤكد كلامه هذا في نفس الجزء فيقول:

" واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه، قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها، وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط، مهتدياً إلى الصراط المستقيم"[1].

ويقول – أيضاً – : " أول ذنب عصى الله به كان من أبوي الثقلين، وكان ذنب الجن أكبر، لأنه ترك المأمور به، وهو السجود، وذنب آدم كان ذنباً أصغر، وهو الأكل من الشجرة" .

يقول: " وإن كان كثير من الناس المتكلمين في العلم يزعم أن هذا ليس بذنب، وهذا القول: يقول به طائفة من أهل البدع، والكلام، والشيعة، وكثير من المعتزلة، وبعض الأشعرية، وغيرهم ممن يوجب عصمة الأنبياء من الصغائر، وهؤلاء فروا من شيء، ووقعوا فيما هو أعظم منه، من تحريف كلام الله عن مواضعه" [2]

هذا ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية في عدم عصمة الأنبياء بعد النبوة.

وإذ كانوا بعد النبوة غير معصومين فماذا يكون حالهم قبل النبوة؟ ولقد أعرب عن ذلك الآمدي في الإحكام حيث قال: " أما قبل النبوة: فقد ذهب القاضي أبو بكر

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميه، ج١٥، ص٥٠.

(٢) مجموع الفتاوى، ج٢٠، ص٨٨، ٨٩. وواضح من هذه النصوص أن ابن تيميه لا يقر بعصمة الأنبياء من الصغائر، وخاصة بعد النبوة، والغريب أنه – رحمه الله – يشبه من دلل على براءة ساحة الأنبياء مما نسب إليهم من الصغائر أو الكبائر بمن حرفوا الكلم عن مواضعه – اليهود والنصارى – ونقول إن من وقف عند نص الآية في قوله تعالى: " وعصى آدم ربه فغوى" (طه: ١٢١)، كمن وقف عند قوله تعالى: " فويل للمصلين" (الماعون: ٤)، ولو كملت القراءة لفهم المعنى من أن سيدنا آدم عندما أكل من الشجرة كان ناسياً، وكان ذلك قبل النبوة بدليل قوله تعالى: " ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" (طه : ١٢٢) وبذلك يفهم المعنى كما في قوله تعالى: " فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون" (الماعون : ٤، ٥) .

الباقلاني، وأكثر أصحابنا، وكثير من المعتزلة، إلى أنه لا يمتنع عليهم المعصية كبيرة كانت أو صغيرة، بل ولا يمتنع عقلاً إرسال من أسلم وآمن بعد كفره"[١] .

تلك كانت أبرز الآراء حول عصمة الأنبياء، وإن كان هناك آراء للرافضة[٢] من الشيعة، والفضيلية[٣]، والأزارقة[٤] من الخوارج، إلا أنه قد أشرنا إليهم في الهامش، لنرى بعد ذلك رد العلماء الأجلاء، والمحققين المنصفين على من قال بعدم عصمة الأنبياء.

---

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ج١، ص٢٤٢، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الرافضة: هي فرقة من الشيعة، سموا بذلك لتركهم زيد بن علي. مختار الصحاح، ص١٠٥، وافترقت الرافضة إلى أربعة أصناف، زيدية، وإمامية، وكيسانية، وغلاة. انظر الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٢١.
وقد ذهبوا إلى امتناع ذلك كله منهم قبل النبوة، وحجتهم: أن ذلك مما يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم والنفرة من إتباعهم، وهو خلاف مقتضى الحكمة من إرسالهم، وهذا يعني أنه لا يقع منهم ذنب كبير ولا صغير، لا على سبيل القصد، ولا السهو، ولا التأويل والخطأ. انظر تفسير الإمام الرازي، ج٢، ص٨، ط/ دار الفكر، والمنخول من تعليقات الأصول، للإمام الغزالي تحقيق د/ هيتو، ص٢٢٣، ط/ دار الفكر ١٩٨٠م.

(٣) الفضيلية: طائفة من الخوارج، وهم منتسبون إلى رجل يقال له فضل، ينتسبون إلى زياد بن الأصفر. يقول الرازي في المحصول: إنهم شرذمة صغيرة من الصفرية.. وقد ذهبوا إلى أن الأنبياء قد وقعت منهم ذنوب، وكل ذنب عندهم كفر وشرك، وقالوا: إن كل معصية صغرت أو كبرت فهي شرك، وإن صغائر المعاصي مثل كبائرها، ومن أهم متناقضاتهم، أن من أظهر الإيمان فهو مؤمن، حتى لو أسر الكفر. راجع في ذلك: المحصول في علم الأصول للإمام الرازي، ج١، ص٣٤٠، وكذلك محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي، ص٣١٨، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ الشنقيطي، ص٥٣٧، ط ١٩٨٣م، والفرق بين الفرق للبغدادي، ص٩٠.

(٤) الأزارقة: هي فرقة من الخوارج، وهم أتباع نافع بن الأزرق، وقد سموه أمير المؤمنين، وانضم إليهم خوارج عمان، واليمامه، وكانوا أكثر من عشرين ألفا، ولم تتكسر شوكتهم إلا على يد المهلب بن صفرة الأزدي، وقد دامت الحرب بينهم سجالا مدة تسع عشرة سنة، في زمان عبدالله بن الحارث ثم عبدالملك بن مروان.
وكانوا يقولون بجواز بعثة من علم الله أنه يكفر بعد نبوته. وقد أجمع العلماء على فساد تلك الأقوال والآراء. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٨٢، وأضواء البيان للشنقيطي، ومحصل أفكار المتقدمين للرازي، والصحائف الإلهية للسمرقندي، تحقيق د/ أحمد الشريف، ص٤٣٤، ط/ مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٥، والمحصول للرازي، والمواقف للإيجي، ص٣٥٨، ٣٥٩.

المبحث الثاني : الرد على من قال من العلماء أن الأنبياء ليسوا بمعصومين عن الصغائر:

زعم بعض العلماء أن الأنبياء – عليهم السلام – ليسوا بمعصومين من الصغائر بعد النبوة، واستدلوا على ذلك بعدة أدلة من الكتاب والسنة، وها نحن نجمل كلامهم في عدة مسائل حتى نتمكن من الرد عليهم في كل ما جاؤوا به، وأهم هذه المسائل هي:

المسألة الأولى: الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر.

المسألة الثانية: صدور المعاصي فعلاً من الأنبياء، مستدلين بما يلي:

أ- معصية أبينا آدم، عليه السلام.

ب- دعوة سيدنا نوح لابنه.

ج- ما نسب إلى سيدنا إبراهيم من معاصي.

د- قتل سيدنا موسى للقبطي المصري.

هـ- تسرع سيدنا داود في الحكم.

و – ما نسب إلى سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم.

المسألة الثالثة: التوبة والاستغفار لا يكونان إلا من ذنب.

المسألة الرابعة : الذي يبرأ ساحة الأنبياء ويثبت لهم العصمة يكون منحرفاً، ومخالفاً لكتاب الله تعالى، ويكون كذلك مبتدعاً، ومحرفاً لكتاب الله تعالى.

هذه هي أهم المسال التي وردت في فتاوى الإمام ابن تيمية وغيره ممن ناصره عليها، وللرد على ذلك نقول والله المستعان: –

المسألة الأولى: الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر.

إن الله عز وجل اختار أنبياءه ورسله من صفوة خلقه، وجعلهم وسطاء بينه وبين عباده في تبليغ شرائعه، لذلك فضلهم على سائر خلقه، فطهرهم من الذنوب والمعاصي، فأتم خَلقَهم من المعايب، وقدس خلقهم من مساوىء الأخلاق ورذائل الخصال، ثم أيدهم بالمعجزات، وصرفهم عن شواغل الدنيا، كما خصهم بكمال الفطنة، وقوة الرأي.

وتبعاً لذلك: فقد عصمهم سبحانه وتعالى من المعاصي الفعلية، والقولية والقلبية، فحفظهم ظاهراً وباطناً، حتى ظهروا في ثوب الفضيلة، ليكونوا قدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

" لقد كان إرسالهم، صلوات الله عليهم، إلى البشرية لأجل هدايتهم، وتزكية نفوسهم بما يصلح به أحوالهم في دنياهم، ويسعدهم في أخراهم، ولا يتم هذا الغرض، ولا تتحقق هذه الحكمة، إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يقتدى بهم في أعمالهم، وسيرهم، وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم.

ومن ثم قال علماؤنا بوجوب عصمة الأنبياء من المعاصي والرذائل، وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها.

وحسبك أن تعلم وتعتقد أن الأنبياء معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة وبعدها قطعا، ومعصومون عن الصغائر فيما ذهب إليه الجمهور (١) .

يقول القاضي عياض: " إنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله تعالى وصفاته والتشكك، أو التردد في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار، عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة، ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة" (٢) .

ويقول صاحب شرح الكوكب المنير: " فالعصمة ثابتة له، صلى الله عليه وسلم، ولسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من كل ذنب، كبير أو صغير، عمداً كان أو سهواً، في الأحكام وغيرها، لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم، وآثارهم، وسيرهم على الإطلاق من غير التزام قرينة، وسواء في ذلك قبل النبوة أو بعدها، وتعاضدت

---

(١) انظر: الوحي المحمدي، للشيخ/ محمد رشيد رضا، ص٢٨، الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ، مطبعة المنار، وكبرى اليقينيات ، د/ محمد البوطي، ص٢٠٣.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض، بشرح الإمام الملا علي القاري، ج٢، ص٢٠٠، ط/ دار الكتب العلمية، وكذلك الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ج١، ص٣٠٨، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، وكذلك المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية، ج١، ص٤٩١، ط/ قطر ١٩٧٧م.

الأخبار بتنزيههم عن النقائص منذ ولدوا، ونشأتهم على كمال أوصافهم في توحيدهم وإيمانهم عقلاً أو شرعاً، على الخلاف في ذلك بعد البعثة فيما ينافي المعجزة"[1].

ويقول الشيخ العلامة محمد بخيت المطيعي: " الحق أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، معصومون، لا يصدر عنهم ذنب أصلاً، لا كبيرة ولا صغيرة، لا عمداً ولا سهواً، وفاقاً للأستاذ أبي إسحاق الاسفراييني، وأبي الفتح الشهرستاني، والقاضي عياض، والشيخ الإمام تقي الدين السبكي، لكرامتهم على الله تعالى عن أي يصدر منهم ذنب، والمراد إنه لا يصدر منهم ذنب ولو قبل النبوة، وتسميته حينئذ، ذنباً مجاز، إذ لا حكم قبل الشرع"[2].

ويقول الإمام البيجوري في شرحه على جوهرة التوحيد: " قوله: " والأمانة"، وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه، ولو نهي كراهة، أو خلاف الأولى، فهم محفوظون ظاهراً من الزنا، وشرب الخمر، والكذب، وغير ذلك من منهيات الظاهر، ومحفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء، وغير ذلك من منهيات الباطن، والمراد المنهي عنه ولو صورة، فيشمل ما قبل النبوة، ولو في حال الصغر،

---

(١) انظر شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير، للعلامة محمد بن أحمد الحنبلي المعروف بابن النجار، تحقيق د/ محمد الزحيلي، د/ نزيه حماد، ج٢، ص١٧٧، ط/ دار الفكر دمشق، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، فالإجماع منعقد على عصمتهم من تعمد الكذب في الأحكام، وما يتعلق بها، لأن المعجزة قد دلت على صدقهم فيها، فلو جاز كذبهم فيها لبطلت دلالة المعجزة. انظر ص١٦٩، من شرح الكوكب المنير، وكذلك الأربعين في أصول الدين للإمام الرازي، ص٢٢٩. يقول ابن النجار: ومنع الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، وجمع من أصحابنا، وغيرهم، من الذنب مطلقاً، كبيراً أو صغيراً، عمداً أو سهواً. أخل بصدقه أو لا، وهذا اختيار أبي المعالي في الإرشاد، والقاضي عياض، وأبي بكر، ومحمد بن مجاهد الطائي، وابن حزم. وقال القاضي حسين الشافعي هو الصحيح من مذهب أصحابنا، وهو قول أبي الفتح الشهرستاني، وابن عطية المفسر، وشيخ الإسلام البلقيني، والسبكي، وولده التاج. انظر شرح الكوكب المنير، ص١٧٤، ١٧٥، ١٧٦. هل كل هؤلاء وغيرهم كثير محرفون للكلم عن مواضعه ومبتدعون، كما يدعي من يجيز عليهم الصغائر.

(٢) انظر حاشية العلامة محمد بخيت المطيعي علي نهاية السول في شرح منهاج الأصول للبيضاوي، شرح الشيخ الإمام جمال الدين الأسنوي، ج٣، ص٨، ط/ عالم الكتب بيروت، وانظر كذلك البحر المحيط في أصول الفقه للشيخ بدر الدين محمد بن بهادر المسمى بالزركشي، وقد قال: " والمختار امتناع ذلك عليهم، وأنهم معصومون من الصغائر والكبائر جميعاً، وعليه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، وأبو بكر بن مجاهد شيخ بن فورك، كما نقله ابن حزم عنهم في كتابه الفصل، وقال: إنه الذي ندين الله به" انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ج٤، ص٢. وقول ابن حزم: أبو بكر بن مجاهد شيخ ابن فورك غير دقيق، لأن أبا بكر، غير محمد بن مجاهد الطائي، راجع شرح الكوكب المنير، ص١٧٤/ ١٧٥.

ولا يقع منهم مكروه، ولا خلاف الأولى، بل ولا مباح على وجه كونه مكروهاً أو خلاف الأولى، أو مباحاً، وإذا وقع صورة ذلك فهو للتشريع، فيصير واجباً أو مندوباً في حقهم" [١] .

ولو استقصينا كل ما ذكره العلماء في إثباتهم لعصمة الأنبياء عن الكبائر والصغائر لطال بنا البحث، وفيما ذكر غنية وكفاية.

المسألة الثانية: وهي تتمثل في شبه من جوز على الأنبياء صغائر الذنوب بعد البعثة والرد عليها.

احتج بعض الأئمة على عدم عصمة الأنبياء عن الصغائر بما نقل عنهم من أقاصيص، وبما جاء في كتاب الله تعالى، حيث قد أثبت لهم فيه المعصية، والذنب، وما توبتهم واستغفارهم إلا من ذلك.

وقد أجاب على ذلك الأئمة الأعلام، كالإمام الرازي، وابن حزم، والتفتازاني وغيرهم كثير. بأن ما نقل عنهم آحاداً فمردود، لجواز طرو النسيان والغفلة في خبر الآحاد، وأما ما نقل متواتراً، أو منصوصاً عليه في كتاب الله، تعالى، فمحمول على السهو، والنسيان، أو ترك الأولى، أو كونه قبل البعثة، أو غير ذلك من المحامل والتأويلات، وبيان ذلك فيما يلي:

الشبهة الأولى: قصة سيدنا آدم عليه السلام:

قال الله تعالى في شأنه: " وعصى آدم ربه فغوى"[٢]، ولقد عهد الله، عز وجل، من قبل لآدم إن إبليس عدو له، فنسيَ آدم هذا العهد، فأحسن الظن بيمين إبليس له، يقول ابن حزم: " ولا سلامة ولا براءة من القصد إلى المعصية، ولا أبعد من

---

(١) انظر حاشية الإمام الشيخ إبراهيم البيجوري، المسماه بتحفة المريد على جوهرة التوحيد، ص٧١، ط/ دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٧هـ، وانظر كذلك حاشية الدسوقي على أم البراهين، للإمام سيدي محمد السنوسي، ص١٧٣، ط/ دار الفكر.

(٢) استدلال المخالفين على عدم عصمة الأنبياء بهذه الآية، كمن استدل بثبوت الويل للمصلين في قوله تعالى: " فويل للمصلين" ولو أكمل قراءة ما بعدها لفهم المعنى من أن الويل ليس للمصلين، وإنما لمن سهى عن الصلاة، " فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون" (الماعون: ٤، ٥)، فلو قرأت الآية التي بعد العصيان لعلم أن العصيان كان في الجنة، ولا أمة له في الجنة، ثم لما هبط إلى الأرض وصارت له أمة كان نبيا عليها، وهذا هو معنى قوله تعالى: " وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" (طه : ١٢١: ١٢٢)، أي أن العصيان كان قبل الاجتباء والهداية، ثم أي أثر يبقى للعصيان بعد توبة الله عليه واجتبائه واصطفائه إياه وهداية الله له، ثم إن الحق سبحانه وتعالى قد عبر عن هذا العصيان بالنسيان في نفس السورة، فقال سبحانه: " فنسي ولم نجد له عزما" (طه : ١١٥)، فهل النسيان عصيان.

الجراءة على الذنوب أعظم من حال من ظن أن أحداً لا يحلف حانثا، وهكذا فعل آدم، عليه السلام، فإنه إنما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً بنص القرآن - " فنسى " - ومتأولاً وقاصداً إلى الخير، لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله، تعالى، فيكون ملكا مقربا، أو خالداً فيما هو فيه أبداً، فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله، عز وجل، به، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه، عز وجل، على ظاهره، لكنه تأول وأراد الخير، فلم يصبه، ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجوراً، ولكن آدم، عليه السلام، لما فعله ووجد به خروجه من الجنة إلى نكد الدنيا كان بذلك ظالماً لنفسه، وقد سمى الله، عز وجل قاتل الخطأ قاتلاً، كما سمى العامد، والمخطيء لم يتعمد معصية"(١).

هذا ما كان من باب ما فعله آدم، عليه السلام، من حيث أكله من الشجرة، أما ما كان من باب الاعتقاد، والذي تمسك به الطاعنون في عدم عصمة الأنبياء ما جاء في قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الأعراف : ١٨٩، ١٩٠)

قالوا - أي الطاعنون - لاشك أن النفس الواحدة هي آدم، وزوجها المخلوق منها حواء، قد جعلا لله شركاء فيما آتاهما من أولاد، حيث إن الكنايات في الآية تعود إليهما.

يقول الإمام الرازي: " لا نسلم أن النفس الواحدة هي آدم، وليس في الآية ما يدل عليه، بل نقول: الخطاب لقريش، وهم آل قصي، والمعنى؛ خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجة عربية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد سميا

---

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم الظاهري، ج٤، ص٤، ط/ دار المعرفة.

أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبدالعزى، وعبدالدار، وعبدقصي، والضمير في (يشركون) لهما ولأعقابهما، فهذا هو الجواب المعتمد"[1] .

يقول العلامة التفتازاني: " لم يقل أحد في حق الأنبياء بالشرك في الإلوهية، ولو قبل البعثة، فالوجه على أنه على حذف المضاف، أي جعل أولادهما له شركاء، بدليل قوله تعالى: " فتعالى الله عما يشركون"[2].

ولقد تدارك سيدنا آدم وأمنا حواء هذه المعصية، فقال تعالى: " **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** [3]، فتداركهما الله بالتوبة والرجاء والإخلاص وهو دليل على صدور الإنابة والرجوع إليه سبحانه، ولقد نال بذلك أعلى الدرجات، دليل ذلك قوله تعالى: **(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)** [4] .

يقول ابن فورك وغيره: " إن الله ذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وهذا يدل على أن المعصية كانت قبل النبوة"[5].

---

(١) انظر التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، ج٢، ص٣، ط/ دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م . وههنا رأي يتصل بالخلق والجعل بخصوص خلق آدم وحواء، عليهما السلام، فالله عز وجل قد عبر عن خلق آدم وحواء في أول سورة النساء بقوله سبحانه: " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها " (النساء: ١) فحواء عبر هنا عنها بالخلق، ولما عبر سبحانه وتعالى عن الجعل جعله في نفس الخلق، فقال سبحانه وتعالى في سورة الإنسان: (إنا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) (الإنسان: ٢) فعبر هنا عن السمع والبصر الذي يكون في الإنسان بالجعل، أي أن الخلق يكون أولاً، ثم الجعل يكون ثانياً، والمعنى- كما أجمع الأئمة، ابن حزم، والتفتازاني والرازي، وغيرهم – أن الله خلقكم يا جميع البشر، بما فيهم قريش، من نفس واحدة آدم وحواء، ثم جعل منكم أنتم أزواجاً من جنسكم، لتسكنوا إليها، فالخطاب في الآية لقريش، والنفس الواحدة هي قصي القرشي العربي، جعل من جنسه المرأة القرشية العربية، وهذا هو المراد من الآية، وبيان الفرق بين الخلق والجعل. والله أعلم.

(٢) شرح المقاصد للعلامة سعد الدين التفتازاني، ج٣، ص٣١١، ٣١٢، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، والمواقف للإيجي، ص٣٦٢.

(٣) الأعراف: ٢٣.

(٤) طه: ١٢٢.

(٥) راجع العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبدالرحمن حسن حنكة، ص٣٣٩، ط/ دار القلم دمشق.

يقول الشيخ الشنقيطي: " فانظر أي أثر يبقى للعصيان والغي بعد توبة الله عليه، واجتبائه، أي اصطفائه إياه وهدايته له، ولاشك أن بعد الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة" [١].

ومن أوضح الأدلة على توبة الله عليه قوله تعالى: (**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**) [٢].

الشبهة الثانية: ما جاء في حق سيدنا نوح عليه السلام:

وأما الشبهة التي أثيرت في حق سيدنا نوح، عليه السلام، فهي تتمثل في قوله سبحانه تعالى: (**يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**) [٣] . تكذيب له في قوله: (**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**) [٤].

والجواب على ذلك كما يقول التفتازاني: إن ذلك ليس للتكذيب، بل للتنبيه على أن المراد بالأهل في الوعد هو الأهل الصالح، أو المعنى: إنه ليس من أهل دينك، أو إنه أجنبي منك، وإن أضفته إلى نفسك وأبنائك، لما روي أنه كان من امرأته، والأجنبي إنما يعد من آل النبي إذا كان له عمل صالح" [٥].

قال ابن حزم: " ذكروا قول الله، تعالى، لنوح: (**فلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) [٦] .

يقول: وهذا لا حجة لهم فيه، لأن نوحاً، عليه السلام، تأول وعد الله، تعالى، أن يخلصه وأهله، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة، وهذا لو فعله أحد لكان مأجوراً، ولم يسأل نوح تخليص مَنْ أيقن إنه ليس من أهله، فتفرع عن ذلك نهي الله إياه أن يكون من الجاهلين، فتندم عليه السلام، من ذلك ونزع، وليس ها هنا عمد للمعصية البتة ".

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ج٤، ص٥٣٨، ط ١٩٨٣م.

(٢) البقرة: ٣٧.

(٣) هود: ٤٦.

(٤) هود: ٤٥.

(٥) شرح المقاصد للتفتازاني، ج٣، ص٣١٢.

(٦)هود: ٤٦.وانظر كلام ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل: ج٤، ص٥-٦ بتصرف يسير.

الشبهة الثالثة : ما جاء في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام:

يقول التفتازاني: " وأما الشبهة في حق سيدنا إبراهيم، عليه السلام، فهو أنه كذب ثلاث كذبات في قوله: (هذا ربي) (١) وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا) (٢) وقوله: (إني سقيم) (٣).

والجواب على ذلك: أن الأول على سبيل الفرض والتقدير، كما يوضع الحكم الذي يراد إبطاله، أو على سبيل الاستفهام، أو على أنه كان في مقام النظر والاستدلال، وذلك قبل البعثة، والثاني كان على التعريض والاستهزاء، والثالث على أن به مرض الهم والحزن من عنادهم، أو الحمى على ما قيل" (٤).

يقول ابن حزم: هذا كله ليس على ما ظنوه، بل هو حجة لنا والحمد لله رب العالمين، أما الحديث على أنه، عليه السلام، كذب ثلاث كذبات، فليس كل كذب معصية، بل منه ما يكون طاعة لله عز وجل، وفرضاً واجباً، يعصي من تركه، وقد صح أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً،(٥) وقد أباح، صلى الله عليه وسلم، كذب الرجل لامرأته فيما يستجلب به مودتها، وكذلك الكذب في الحرب(٦)، ....، وكل ما روى عن إبراهيم، عليه السلام، في تلك الكذبات، فهو داخل في الصفة المحمودة، لا في الكذب الذي نهي عنه، وأما عن قوله عن سارة هي أختي فصدق هي أخته من وجهين، الأول لقوله تعالى: (إنما

---

(١) الأنعام: ٧٦، ٧٧، ٨٨.

(٢) الأنبياء: ٦٣.

(٣) الصافات: ٨٩.

(٤) شرح المقاصد، ج٣، ص٣١٢.

(٥) الحديث خرجه البخاري في كتاب الصلح، باب ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، رقم ٢٦٩٢، ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الكذب وبيان المباح، رقم ٢٦٠٥ .

(٦) أبيح الكذب في الحرب، وأوضح ما يكون ذلك في قصة نعيم بن مسعود، رضي الله عنه، عندما جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، في غزوة الخندق وأعلن إسلامه، فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: " خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة، فذهب إلى بني قريظة وقريش وأوقع بينهما لنصرة الإسلام". انظر السيرة الحلبية، ج٢، ص٦٥٠.

المؤمنون إخوة) [1]، والوجه الثاني القرابة لأنها كانت من قومه، فمن عد هذا كذباً مذموماً من إبراهيم عليه السلام، فليعده كذباً من ربه، عز وجل، وهذا كفر مجرد، فصح أنه، عليه السلام، صادق في قوله"[2].

وأما قوله: **(رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)** [3].

يقول القاضي عياض في الشفا، والملا علي القاري في شرحه عليه: " لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى، في الدنيا والآخرة، إذ كان أثبت إيماناً، وأتم إيقاناً، ولكن أراد طمأنينة القلب بمشاهد فعل الرب، إذ ليس الخبر كالمعانية – كما ورد في الأثر– فحصل له العلم الأول، وهو علم اليقين بوقوعه، أي بوقوع إحياء الموتى، وأراد العلم الثاني، وهو عين اليقين بكيفيته ومشاهدته، والحاصل أنه في مقام استزادة العلم، إذ لا نهاية لمراتب تجليات الله وتعيناته، ولذا قال لأعلم الخلق بالحق: "وقل رب زدني علما".

فأراد إبراهيم، عليه السلام، الانتقال من النظر السابق، أو الخبر الصادق، إلى المشاهدة العينية المفيدة للزيادة اليقينية، والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين"[4].

وأما قوله: (بل فعله كبيرهم هذا) قال المفسرون: إنه عليه السلام سلك في الجواب مسلكاً تعريضياً يؤدي به إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه، ليحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي عن الكذب، فقد أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه، كما أبرزه في ذلك

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم، ج٤، ص٦- ٧ بتصرف يسير، وانظر كذلك عصمة الأنبياء للإمام فخر الدين الرازي، ص٤٩، وما بعدها ، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٣) البقرة: ٢٦٠. كان سؤال سيدنا إبراهيم عن الكيفية، وليس عن شكه في إحياء الله الموتى، حيث إن هذه قضية مسلم بها عنده، عليه السلام.

(٤) شرح الشفا للقاضي عياض للإمام علي القاري، ج٢، ص١٧٥ بتصرف، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر كذلك عصمة الأنبياء للرازي، ص ٦٢-٦٤، والمواقف للقاضي عبدالرحمن الايجي، ص٣٦٢.

المعرض فعلاً بجعل الفأس في عنقه، أو في يده، حيث إنه رأى تعظيمهم إياه أشد من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام، فغضب لذلك زيادة الغضب، فأسند الفعل إليه اسناداً مجازياً عقلياً باعتبار أنه الحامل عليه، وإنما لم يكسره لتظهر الحجة، إذ لو كسره كما كسر غيره لم يتم له ما قصده، والقرينة على ذلك المجاز عدم إمكان صدور الفعل من هذا الصنم الكبير لو كانوا يعقلون، ألا ترى إلى قوله حكاية عنه، عليه السلام: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) ، وتسمية ذلك كذباً من باب المجاز[1]

الشبهة الرابعة: ما جاء في شأن سيدنا موسى، عليه السلام:

تمسك الطاعنون في عدم عصمة الأنبياء بقتل سيدنا موسى للقبطي (فاتون)، وجاء ذلك في قول الله تعالى: (فوكزه موسى فقضى عليه) [2].

جاء في فواتح الرحموت: أن الحنفية والشافعية جوزوا الزلة في الكبائر والصغائر بعد النبوة وقبلها، بأن يقصد المباح فيلزم معصية، لو صدر عمداً، كوكز موسى – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم– القبطي فاتون، فمات فلزم القتل، وذلك حين أخذ – القبطي – إسرائيليا ليحمل عليه الحطب إلى مطبخ فرعون، وكان يتأبى عنه، فاختصما، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، فنهى القبطي عما كان عليه فلم ينته، بل قيل: إنه قال – أي القبطي – لموسى: لقد هممت أن أحمل عليك، فوكزه موسى – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – تأديباً، فقضى عليه فمات، فهذه زلة منه قبل النبوة، وفي هذا المثال، إشارة إلى أن حال ما قبل النبوة وبعدها سواء في عدم صدور الذنب، ولو صغيرة إلا على وجه الزلة.

وفائدة صدور الزلة عنهم، عليهم الصلاة والسلام، ابتلاؤهم ليستغفروا ويتوبوا، فينالوا المنزلة الرفيعة، وتقترن الزلة بتنبيه من الفاعل، أو من الله تعالى بوحي، لئلا يتأسى فيها ويحصل الابتلاء، ثم إن الزلة ليس فيها عصيان من وجه، بل هي مباح، كما قال تعالى: **(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إلاَّ خَطَئًا)** [3].

---

(١) من حاشية الشيخ المطيعي على نهاية السول شرح منهاج الأصول للقاضي البيضاوي، تأليف الإمام جمال الدين الأسنوي، ج٣، ص٩ بتصرف، ط/ عالم الكتب، بيروت.

(٢) القصص: ١٥.

(٣) النساء: ٩٢.

واعلم أنه كما يجوز عليهم – عليهم الصلاة والسلام- الزلة يجوز عليهم الخطأ، فيقعون فيما يكون معصية لو لم يكن خطأ، وكذا السهو"[1].

وعلى كل: فإن الذي وقع من سيدنا موسى، عليه السلام، كان قبل النبوة، وكان على سبيل الخطأ، لأنه لم يرد قتله.

الشبهة الخامسة في شأن سيدنا داود، عليه السلام:

قالوا إن تسرع داود في الحكم قبل سماع قول الطرف الآخر يعد ذنباً، لذا أسرع إلى التوبة، فغفر الله له ذنبه.

والقصة كما جاءت في كتاب الله، تعالى، حيث يقول سبحانه:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) (ص: ٢١ – ٢٥)

وخلاصة ذلك: إن الله عز وجل بعث إلى سيدنا داود، عليه السلام، ملكين[2]، لينبهاه على التوبة، فأتياه وهو في محرابه، فتسوروا المحراب، وأتوه من أعلى سوره، ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض – على سبيل الفرض والتقدير والتعريض، لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان – ثم طلبا منه أن يحكم

---

(١) فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت للإمام محب الله البهاري، ضبطه وصححه عبدالله محمود عمر، ط٢، ص١٢١ بتصرف، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ---- ---- وانظر: حاشية المطيعي على نهاية السول في شرح منهاج الأصول للقاضي ناصر الدين البيضاوي، تأليف الإمام جمال الدين الأسنوي، ج٣، ص٨، ط/ عالم الكتب، بيروت، الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم، ج٤، ص١٦، شرح المقاصد، ج٣، ص٣١٣، عصمة الأنبياء، للإمام الرازي، ص٨٩ – ٩٣، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، والمواقف للإيجي، ص٣٦٢.

(٢) ينفي ابن حزم أن يكون الخصم ملكين، وإنما هم قوم من بني آدم كانوا مختصمين في نعاج من الغنم. انظر الفصل، ج٤، ص١٨.

بينهما بالحق ونهياه عن الجور "فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط" أي لا تجر في حكمك، وأهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة، وعُنيَ بهذا داود، عليه السلام، لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وُعنيَ بقوله: ولي نعجة واحدة أوريا زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود، فقال اكفلينها وعزني، أي غلبني، في الخطاب قال داود، عليه السلام، متسرعاً: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، قالوا: وتلك خطيئة داود، عليه السلام، لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت"[١].

وللمفسرين آراء في ذنب سيدنا داود الذي استغفر له وتاب، أشهر تلك الآراء هي أن أوريا خطب امرأة فغاب عنها، فخطبها داود فتزوجته، فاغتم لذلك أوريا، فعاتب الله داود على ذلك، حيث لم يتركها لخاطبها"[٢].

ويرى الشوكاني أن الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود، عليه السلام، أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها ويضمها إلى نسائه، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء[٣].

ويرى الإمام ابن حزم أن تلك الآيات على ظاهرها، وأن الخصم كانوا من البشر، لا من الملائكة، وأنهم تنازعوا في شأن النعاج حقيقة، فيقول تعليقاً على تلك الآيات: " وهذا قول صادق صحيح لا يدل على شيء مما قاله المستهزؤن الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود[٤]. ثم يقول: وتالله إن كل امرىء منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أي يتعشق امرأة جاره، ثم يعرض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين، الفساق المتمردين،

(١) انظر فتح التقدير، للإمام الشوكاني، ج٤، ص٥٣٢ بتصرف.

(٢)انظر فتح القدير للإمام الشوكاني، ضبطه وصححه أحمد عبدالسلام، ج٤، ص٥٣٢ ، ٥٣٣، ط/ بيروت.

(٣) انظر فتح القدير للإمام الشوكاني، ضبطه وصححه أحمد عبدالسلام، ج٤، ص٥٣٢ ، ٥٣٣، ط/ بيروت.

(٤) قول ابن حزم: (ولدها يهود) يعني أن اليهود هم الذين ادعوا عليه كذباً ولفقوا هذه القصة، وملخصها كما تحكي التوراة: أن سيدنا داود رأى امرأة قائد جيشه أوريا الحثي تستحم وهو يتمشى فوق سطح داره، فأعجب بها فزنى بها، فأمر أوريا أن ينزل ليستحم مع زوجته فأبى، فتحايل على قتله، حيث أرسله إلى صدر جيش فقتل، فضم داود المرأة لنسائه، وقد حملت بزناها، فولدت سليمان. وإن هذا لشيء عجاب. انظر سفر صموئيل الثاني، الإصحاح السادس.

لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود، عليه السلام، الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه الله، عز وجل، عن أي يمر مثل هذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيفه إلى أفعاله"[١].

ويقول الإمام الرازي: " فاعلم أن الذي أقطع به عدم دلالة هذه الآية على صدور الكبيرة من داود، عليه السلام، وبيانه من وجوه:

الأول : أن الذي حكاه بعض المفسرين عن داود وهو أنه عشق امرأة أوريا وقتله، أن هذا لا يليق بالأنبياء، ولو وصف به أفسق الملوك لكان منكراً.

الثاني: أن الدخول في دم أوريا أعظم من التزوج بامرأته، فكيف ترك الله الذنب الأعظم، واقتصر على ذكر الأخف؟

الثالث: أن السورة من أولها إلى آخرها في محاجة منكري النبوة، فكيف يلائمها القدح في بعض أكابر الأنبياء بهذا الفسق القبيح.

الرابع: إن الله تعالى وصف نبيه داود، عليه السلام، بأوصاف حميدة، في ابتداء القصة، وذلك ينافي هذا التفسير الشنيع. ومن هذه الأوصاف: قوله تعالى: " **ذا الأيد**"[٢] والأيد القوة في الدين، والقوة في الدين تجعله يملك نفسه عن الفجور والقتل، وقوله (**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**) [٣] وقوله تعالى: (**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**) [٤] – فمن سخر له الجبال لكي تسبح معه والطير، أيتخذ ذلك وسيلة للقتل والزنا. وقوله تعالى "**وآتيناه الحكمة**" [٥] والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملاً، فكيف يجوز أن يقول الله في شأنه " وآتيناه الحكمة" مع إصراره على ما يستنكفه أخبث الشياطين من مزاحمة أفضل أصحابه وأحبائه في

---

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم، ج٤، ص١٨، وانظر شرح المقاصد للتفتازاني، ج٣، ص٣١٤، المواقف للإيجي، ص٣٦٣، وفيه أن القصة مختلقة للحشوية، إذ لا يليق إدخال الذم الشنيع في أثناء المدائح العظام، بل تسور قوم قصره للإيقاع به، فلما رأوه مستيقظاً اخترع أحدهم الخصومة. ونسبة الكذب إلى اللصوص أولى من نسبته إلى الملائكة.

(٢) سورة ص: ١٧

(٣) سورة ص: ١٨.

(٤) سبأ : ١٠.

(٥) سورة ص: ٢٠.

الزوج والمنكوح. وهذا الوصف يبعد عنه كل شائبة، فيبطل زعم المعارضين، وهـذا ما كان قبل تلك القصة من ممادح.

وأما ما بعدها فقد قال سبحانه وتعالى : **(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)**[1].

وهذا من أعظم الممادح، فإذا كان قبل القصة ممدوح، وبعدها ممدوح، فهل يليق بعاقل أن يتقول عليه بمثل هذه الأقاويل. وبهذه الممادح تثبت البراءة لسيدنا داود،عليه السلام، من كل ما نسبه إليه الجهال[2].

الشبهة السادسة: وهي عن سيد الخلق، صلى الله عليه وسلم :

لقد أثيرت عدة شبهات حول سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذكر منها الإمام الرازي في كتابه عصمة الأنبياء ما يقرب من سبع عشرة شبهة، ألف فيها كتب، ولو تقصينا ذلك لخرجنا عن موضوع بحثنا، ولكن يكفي في ذلك ما يتيسر، وفيه إن شاء الله تعالى الكفاية في الرد على الطاعنين في عصمة الأنبياء عليهم أتم الصلاة والتسليم.

استشهد بعض العلماء بآيات من القرآن الكريم زعموا أنها تدل على عدم عصمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الصغائر، بعد اتفاقهم على عصمته عن الكبائر، من ذلك قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (الأنفال : ٦٧، ٦٨)

وقوله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (التحريم : ١)

وقوله سبحانه وتعالى :(**عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى**) (عبس١، ٢)

---

(١) سورة ص: ٢٦

(٢) راجع عصمة الأنبياء للإمام الرازي، ص٩٧ – ١٠٠ بتصرف.

وقوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (الشرح : ١- ٤)

إن في الآيات الثلاثة الأول عتاب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وليس العتاب من قبيل الذنب، وإنما هو عتاب رب الخلق لأعظم الخلق، فسبق العتاب للتشريف، ثم إن هذا من باب الاجتهاد، والاجتهاد ليس داخلاً في شيء من الذنوب.

يقول الشيخ البوطي: " الاجتهاد عبادة يثاب المجتهد عليها أصاب أو أخطأ، ولكن ثبت أن الأنبياء لا يقرون على الخطأ في الاجتهاد، بل لابد أن يأتيهم الوحي ببيان ما هو الأتم والأصوب، أو الأكمل في علم الله، عز وجل، ومما لا يخفى أن هذا التصويب الذي يأتي به الوحي دليل من أقوى الأدلة على نبوة النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى أنها ليست أفكاراً داخلية، أو شعوراً وجدانياً، كما يتصور المشككون والمنافقون"[١].

وللرد على هذا الزعم الذي ينقص من قدر خيره البشر، صلوات الله عليهم أجمعين، نقول:

أولاً: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...) يقول الإمام الرازي: " إن تحريم ما أحل الله[٢]عز وجل، ليس بذنب، بدليل الطلاق والعتاق، وأما العتاب فإن النهي عن فعل ذلك كان لابتغاء مرضاة النساء، أو ليكون زجراً لهن عن

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص٢٠٣.

(٢) تحريم ما أحل الله كان العسل على أرجح الآراء، فكان، صلى الله عليه وسلم، يشرب العسل عند السيدة زينب بنت جحش، فتآمرتا السيدة عائشة والسيدة حفصة، رضي الله عنهما، وقالت إحدهما للأخرى أينا يدخل عليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلتقل له : إني أشم في راحة فمك مغافير – شيء يشبه الصمغ طعمه حلو ورائحته كريهة– فدخل على السيدة حفصة فقالت له ذلك، فأقسم أن لا يشرب العسل. انظر تفسير ابن كثير ، ج٤، ص٣٨٧، ط/ دار التراث، وقد قال ابن كثير بعد أن ذكر قصة السيدة مارية، والصحيح أنه العسل. انظر صحيح البخاري كتاب التفسير، باب سورة التحريم، حديث رقم ٤٩١٢، ومسلم كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، حديث رقم ١٤٧٤.

مطالبة مثل ذلك، كما يقول القائل لغيره: لم قبلت أمر فلان، واقتديت به وهو دونك، وآثرت رضاه وهو عبدك، فليس هذا عتاب ذنب، وإنما هو عتاب تشريف"[1].

ثانياً: وأما قوله تعالى: **(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...)** يقول الإمام ابن حزم، الخطاب في ذلك للمسلمين، وليس لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإنما كان ذلك إذ تنازعوا في غنائم بدر، فكانوا هم المذنبين المشتتين عليه، يبين ذلك قوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ)**[2].

يقول الرازي: الذي يدل على براءة منصب الأنبياء في هذه الواقعة عن كل ما لا ينبغي وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: إنه إما أن يكون قد أوحى إليه بجواز الأسر، وخطر إليه شيء، أو ما أوحى إليه شيء، فإن كان الأول، لم يجز للنبي، صلى الله عليه وسلم، أن يستشير أصحابه فيه، لأن مع قيام النص وظهور الوحي لا يجوز الاشتغال بالاستشارة، وإن لم يوح إليه شيء البتة، لم يتوجه عليه ذنب البتة.

الوجه الثاني: إن ذلك الحكم لو كان خطأ، لأمر الله تعالى بنقضه، فكان يؤمر بقتل الأسرى وبرد ما أخذ منهم، قلنا: لما لم يكن كذلك، بل قال سبحانه: **(فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا)** [3]،علمنا أنه لم يوجد الخطأ في ذلك الحكم البتة.

الوجه الثالث: إن قوله تعالى: **(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا)** هو خطاب للذين رغبوا في المال، وهذا يدل على أن المعاتب في شأن الأسرى هو غير النبي، صلى الله عليه وسلم، وأما قوله تعالى: **(لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ)** فمعناه لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعذبتكم بسبب أخذكم هذا الفداء" [4].

---

(١) عصمة الأنبياء، للإمام الرازي، ص١٤٠، ط/ دار الكتب العلمية، وانظر رد شبهات حول عصمة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، د/ عماد السيد الشربيني، ص٢٠٢، ط/ دار اليقين، المنصورة.

(٢) الأنفال: ١.

(٣) الأنفال: ٦٩.

(٤) عصمة الأنبياء للإمام الرازي، ص١٣٣ بتصرف، وانظر: رد شبهات حول عصمة النبي، صلى الله عليه وسلم، د/ عماد السيد الشربيني، ص١٨٤، وما بعدها.

ثالثاً: وأما قوله تعالى: **(عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى...)** يقول الإمام ابن حزم: " إنه، صلى الله عليه وسلم، قد جلس إلى عظيم من عظماء قريش، ورجا إسلامه، وعلم، عليه الصلاة والسلام، أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير، وأظهر الدين، وعلم أن هذا السائل – عبد الله بن أم مكتوم – الذي جاء ليسأله عن أشياء من أمور الدين والدنيا لا يفوته شيئاً، وهو حاضر معه – بعد ذلك – فاشتغل عنه، صلى الله عليه وسلم، بما خاف فوته من عظم الخير عما لا يخاف فوته، وهذا غاية النظر للدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر، ونهاية التقرب إلى الله تعالى، الذي لو فعله منا أحد اليوم لأجر عليه، فعاتبه الله، عز وجل، على ذلك، إذ كان الأولى عند الله ،تعالى، أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقي"[١].

فأي ذنب ارتكبه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في هذا العتاب، وأي ذنب اكتسبه في ذاك الاجتهاد، واجتهاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم أمر أجمع عليه العلماء والفقهاء والأصوليون، واجتهاده، صلى الله عليه وسلم، في الدين والدنيا إن وافق مراد الله تعالى، فالأمر كما أخبر به، صلى الله عليه وسلم، وإن كان الأمر يحتاج إلى تصحيح أو توضيح، أوحى الله تعالى إليه بذلك.

يقول الإمام الشاطبي: " اعلم أن النبي، صلى الله عليه وسلم، مؤيد بالعصمة معضد بالمعجزة الدالة على صدق ما قال وصحة ما بين، وأنت ترى الاجتهاد الصادر منه صلى الله عليه وسلم، معصوماً فيه بلا خلاف، إما بأنه لا يخطيء البتة، وإما بأنه لا يقر على خطأ إن فرض"[٢] .

رابعاً: وأما عن قوله تعالى: **(وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ)** قالوا هذا صريح في الذنب الذي يدل على عدم العصمة، ولا يدرون أن الذنب – كما يقول الرازي – في أصل اللغة هو الثقل، بدليل قوله تعالى: " **حتى تضع الحرب أوزارها**"[٣] أي أثقالها،

---

(١) الفصل لابن حزم، ج٤، ص٢٢، ٢٣ بتصرف، وعصمة الأنبياء للرازي، ص١٣٨.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي، ج٢، ص٤٥٨، تحقيق د/ عبد الله دراز وغيره ط/ دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م، رد شبهات حول عصمة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، في ضوء القرآن والسنة، د/ عماد السيد الشربيني، ص٤٣٣، ط/ دار اليقين.

(٣) سورة محمد: ٤.

وإنما سمى الذنب بالوزر لأنه يثقل كاسبه، فعلى هذا تسمية الذنب بالوزر مجاز آخر، وهو أنه، صلى الله عليه وسلم، كان في غم شديد لاصرار قومه على الشرك وأنـــه، صلى الله عليه وسلم، هو وأصحابه فيما بينهم كانوا مستضعفين، فلما أعلا الله كلمته، وعظم أمره، فقد وضع وزره، ويقوي هذا التأويل قوله تعالى: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)** [١] فإن العسر بالشدائد والغموم أشـــبه، واليسر بإزالة الهموم أشبه"[٢] .

هذا ما كان من ناحية الشبهات أو المعاصي التي أثيرت حول عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وقد أجبنا عنها تبرئة لساحتهم عليهم السلام من صدورها منهم. ولنأتي الآن إلى الإجابة عن المسألة الثالثة.

المسألة الثالثة: التوبة والاستغفار لا يكونان إلا من ذنب.

قال بعض العلماء: إن التوبة والاستغفار لا يكونان إلا من ذنب، وقد استدلوا على ذلك بما جرى على ألسنة الأنبياء من مثل قول سيدنا آدم: **(رَبَّنَا ظَلَمْنَـــا أَنفُـــسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** [٣] ، وقول سيدنا إبـــراهيم: **(ربنـــا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين)** [٤]، وقول سيدنا موسى: **(سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)** [٥]، وقوله تعالى لسيدنا محمد **"استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنـــات"** [٦] وقول سيد الخلق، صلى الله عليه وسلم، عند افتتاحه الصلاة: **(اللهم باعد بيني وبين خطاياي..)** [٧] .

---

(١) الشرح: ٤-٦.

(٢) عصمة الأنبياء للإمام الرازي، ص١٣٥ بتصرف.

(٣) الأعراف: ٢٣.

(٤) إبراهيم: ٤١.

(٥) الأعراف: ١٤٣.

(٦) سورة محمد: ١٩

(٧) الحديث: رواه البخاري في كتاب الآذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم ٧٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، وباب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)

قال بعض العلماء: إنما تكون التوبة برفع الدرجات، وتعظيم الحسنات وهذا قول صائب، ثم قالوا بعد ذلك: ولا تكون التوبة إلا عن ذنب، والاستغفار كذلك[1].

وهذا ما زل فيه لسانهم.

ونبدأ بتوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفاره.

ورد عن سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة" وفي رواية أخرى: " وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة" [2]. وجاء كذلك أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يقول عند افتتاحه للصلاة بعد التكبير: " اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب"[3].

ومن هنا استشهد بعض العلماء على مدعاهم من أن التوبة والاستغفار لابد وأن يكونا من ذنب، لكننا نقول أي ذنب ارتكبه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد قال حتى وهو في صغره: " ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يفعلونه إلا مرتين من الدهر، كلتاهما يعصمني الله منها"[4] وفي حديث الشفاعة أن الناس يذهبون إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيقولون له: " إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك

---

(١) راجع مجموع فتاوى ابن تيمية، ج١٥، ص٥١ -٥٤ بتصرف.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي في اليوم والليلة، رقم الحديث ٦٣٥٧ ، ط/ بيت الأفكار، مجلد واحد، ورواه الإمام مسلم في صحيحه رقم ٢٧٠٢، ط/ بيت الأفكار.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يرعى غنماً بأعلى مكة وهو صغير، فقال لفتى: أبصر لي غنمي حتى أسمر كما يسمر الشباب، قال نعم، قال فلما خرجت سمعت غناء وصوت دفوف، فقلت: ما هذا؟ قالوا عرس، فجلست أبصر فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال لي، ما فعلت؟ فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي في المرة الأولى، فجلست لأسمع فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال لي: ما فعلت؟ قلت ما فعلت شيئاً، فوالله ما هممت بعدها بسوء مما كان أهل الجاهلية يفعلونه، حتى أكرمني الله برسالته. انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام ابن حزم، ج٤، ص٣١، ط/ دار المعرفة بيروت، ـــ ـــ وكذلك كتب السيرة، والبداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، ج٢، ص٢٣٠، ٢٣١، ط/ دار إحياء التراث العربي، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

وما تأخر"[1]، وما كان استغفار سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا لرفع درجته ومنزلته عند ربه.

ولقد أجاب العلماء على هذا الإدعاء بقولهم: " المراد بالتوبة في الحديث التوبة اللغوية، وهي مجرد الرجوع، والمراد بالاستغفار رؤية ما كان فيه أقل مما صار إليه من الكمالات، لأنه، صلى الله عليه وسلم، يرفع عند الله دائماً من كامل إلى أكمل، بسبب تزايد فواضله وفضائله، واطلاعه على ما لم يكن اطلع عليه قبل، فهو، صلى الله عليه وسلم، ما زال يترقى في الفواضل والفضائل، كما اشتهر من أن حسنات الأبرار سيئات المقربين"[2].

يقول ابن عطية في معنى توبة النبي واستغفاره: " إنما هو رجوعه من حالة إلى حالة أرفع منها لتزيد علومه، واطلاعه على أمر الله، تعالى، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية"[3].

ويقول الشيخ الشنقيطي: سقط: "لو فرضنا أنه وقع منهم، صلوات الله عليهم أجمعين، بعض الذنوب، فإنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة والإخلاص، وصدق الإنابة إلى الله تعالى، حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك.

ومما يوضح هذا قوله تعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)[4] ، فانظر: أي أثر للعصيان والغي بعد توبة الله عليه، واجتبائه واصطفائه إياه وهدايته له، ولاشك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة.

---

(١) الحديث رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، رقم ٤٧١٢، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة رقم ١٩٤، والقبسات السنية شرح العقيدة الطحاوية، ص١٥٦– ١٥٨، ط/ دار القلم، دمشق.

(٢) انظر حاشية المطيعي على نهاية السول للإمام الإسنوي، ج٣، ص٦، والبحر المحيط للزركشي، ج٤، ص١٧١، إرشاد الفحول للشوكاني، ص٣٤، ٣٥ والكوكب المنير لابن النجار، ج ٢ ص ١٧٧

(٣) المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية، ج١، ص٤٩١، ط/ ١٩٧٧، طبعة قطر.

(٤) طه: ١٢١، ١٢٢.

ويقول نقلاً عن أبي حيان في البحر: والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب حالة النبوة البتة، لا الكبيرة ولا الصغيرة، لأنهم لو صدر عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة، لعظيم شرفهم، وذلك محال، ولئلا يكونوا غير مقبولي الشهادة، ولئلا يجب زجرهم وإيذاؤهم، ولئلا يقتدى بهم في ذلك، ولئلا يكونوا مستحقين للعقاب، ولئلا يفعلوا ضد ما أمروا به، لأنهم مصطفون، ولئن إبليس استثناهم في الإغواء"[1].

وبهذا الرد الموجز من الأئمة الأعلام يتضح لنا براءة منصب النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، من الادعاءات التي نسبت إليه من أن التوبة والاستغفار الذي أجرى على لسانه، صلى الله عليه وسلم، لا يكون إلا من ذنب، وثبت أن معنى ذلك هو رفعة منزلة، وعلو قدر له، صلى الله عليه وسلم، خاصة وأن الله، عز وجل، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه سبحانه، وتعالى قد وضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وقد أقسم على ذلك، سبحانه، بقوله: **(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)** [2].

الأمر الذي جعله، سبحانه وتعالى، يقسم على براءة ساحة خلقه صلى الله عليه وسلم، في كتابه، حيث يقول : **(وأنك لعلى خلق عظيم)** [3]، ولعظيم شأنه، ورفعة قدره، وعلو منزلته، أقسم به سبحانه فقال سبحانه: **(لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون)** [4].

وإذا كان قد برأت ساحة النبي المصطفى، صلى الله عليه وآله وسلم، مما نسب إليه، فبراءة من سبقه من الأنبياء والمرسلين – مما نسب إليهم أيضاً – أولى، لأن الله عز وجل قد أمره بأن يقتدي بهم، فبعد أن ذكر، سبحانه وتعالى، جملة منهم،

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الشنقيطي، ج٢، ص٥٣٧، ٥٣٨، ط/ ١٩٨٣.

(٢) النجم: ١-٥.

(٣) القلم: ٤.

(٤) الحجر: ٧٢.

قال له: (أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [1]، فانظر: أي أثر يبقى للذنب بعد صريح تلك الهداية، والاقتداء، خاصة وهم المصطفون الأخيار، وأفضل العالمين: (وكلا فضلنا على العالمين).

المسألة الرابعة :

ذكر الإمام ابن تيمية: إن من أثبت للأنبياء العصمة عن الذنوب بعد النبوة يكون محرفاً للكلم عن مواضعه، ومخالفاً لكتاب الله، تعالى، مبتدعا[2].

فنقول في الجواب: هل كل هؤلاء الأئمة الأعلام، مصابيح الهدى والرشاد – وغيرهم كثير – الذين أثبتوا للأنبياء المعجزة، والأمانة، والعصمة، والكرامة، ونزهوا ساحتهم من كل ما يشوبهم ويشينهم، منحرفون، ومبتدعون، ومخالفون لكتاب الله تعالى، ومحرفون للكلم عن مواضعه، وإذا كانوا هم كذلك فما بال من شانهم وعابهم، وألصق بهم الذنوب والمعاصي، ولم يثبت ما أثبته الله لهم بصريح قوله: (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) [3].. إن هذا لشيء عجاب.

هذا ما أردنا إثباته في هذه العجالة القصيرة دفاعاً عمن اصطفاهم الله، عز وجل، واختارهم من خيرة خلقه لهداية خلقه، فإن أصبنا في ذلك فمن الله وحده لا شريك له، وإن كانت الأخرى فمن العجلة والشيطان.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، اللهم يا ذا الفضل العظيم تفضل علينا بالعفو والغفران، وبما تشاء من النعيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمين، وعلى إخوانه النبيين والمرسلين، وآل بيته الكرام الطيبين، وأصحابه الهداة المهديين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

---

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج١٥، ص١٥٠.

(٣) ص: ٤٧.

الخاتمة

علمنا مما سبق أن العصمة هي عبارة عن عدم خلق الله، عز وجل، ذنباً في النبي أو الرسول، وقيل هي ملكة نفسانية تمنع صاحبها من الفجور.

كما علمنا موقف اليهود والنصارى من مفهوم العصمة، وأنه لا عصمة عندهم للأنبياء مطلقاً، ولقد وصفوا الأنبياء في التوراة بأوصاف لا تليق إلا بهم هم، معاشر اليهود، المحرفون والمبدلون للتنزيل، والأنبياء مبرؤون مما يقولون، فهم أشرف الخلق على الخالق، جل وعلا.

ولم يكن النصارى أحسن حالاً من اليهود فالكفر كله ملة واحدة، ولقد كان الأنبياء كلهم عند النصارى مخلدين في الجحيم، بسبب خطيئة أبينا آدم، عليه السلام، وما أتى المسيح إلا ليخلصهم من ذلك، فنزل المسيح إلى الجحيم، وخلص كل من فيها – بما فيهم الأنبياء – إلا يهوذا الإسخريوطي، فالأنبياء على زعمهم غير معصومين، والمسيح هو المخلص الأوحد، وهو المعصوم وحده.

كما علمنا أن الاصطفاء والاجتباء هو قاعدة لجميع الأنبياء والمرسلين، على أساسه يختار الله، عز وجل، رسله ليكونوا وسطاء بينه وبين عباده، فيختارهم سبحانه وتعالى من خيرة خلقه، وهو أعلم سبحانه حيث يجعل رسالته.

ولقد كان اختيار المرسلين على أسس ثلاثة: أنهم أفضل العالمين، وأنهم مختارون ومصطفون،وأنهم ممدون بإعطاء الكتاب والحكمة، وهذه القواعد الثلاث هي التي أرست في نفوسنا قواعد العصمة للأنبياء، عليهم السلام، سواء كان ذلك في حال التحمل أو في حال الأداء.

كما علمنا موقف طائفة من الفرق الإسلامية في عصمة الأنبياء، حيث قد ذهب الشيعة إلى امتناع جميع المعاصي والذنوب، كبيرها، وصغيرها، قبل النبوة وبعدها، عن الأنبياء، عليهم السلام، فلا يقع منهم ذنب أبداً، وعلى خلاف ذلك جاءت الفضيلية من الخوارج، وقد ذهبوا إلى وقوع ذلك منهم، وكل ذنب عندهم كفر، وكذلك الأزارقة الذين ذهبوا إلى جواز بعثة من علم الله أنه سيكفر بعد نبوته، وأما الشيعة فقد

ذهبوا إلى أنه لا يجوز عقلاً ذنب عليهم، مطلقاً، وهم مع قولهم بهذا يجوزون عليهم الكفر تقية، عقلا وشرعاً، قبل النبوة وبعدها.

وأما المعتزلة فقد ذهبوا إلى منع صدور المعصية منهم عقلاً إلا في الصغيرة، فإنهم يجوزونها، وقد رد عليهم بأنه مبني على القبح العقلي، وهو مردود. وذهب طائفة من العلماء، ومنهم الإمام ابن تيمية، إلى القول بعدم عصمة الأنبياء عن الصغائر بعد النبوة، وإذا كانوا بعد النبوة غير معصومين فمن باب أولى قبلها، وقد أوردنا شبههم ورددنا عليها، وانتهينا بعد ذلك إلى أن الأنبياء، عليهم صلوات الله وسلامه، معصومون من الكبائر والصغائر قبل النبوة وبعدها، وهذا ما ذهب إليه أكثر الأئمة والعلماء.

ولقد قال الإمام الرازي وغيره " والمختار عندنا أنه لم يصدر الذنب عنهم حال النبوة أو قبلها البتة، لا الكبيرة ولا الصغيرة"(1) ويدل على ذلك ما يلي:

أولاً: إن كل من كانت نعمة الله تعالى عليه أكثر، كان صدور الذنب منه أقبح وأفحش، ونعمة الله، تعالى، على الأنبياء أكثر، فوجب أن تكون ذنوبهم أقبح وأفحش من ذنوب كل الأمة، وأن يستحقوا من الزجر والتوبيخ فوق ما يستحق جميع عصاة الأمة، وهذا باطل، فذاك باطل.

ثانياً: إنه لو صدر عنهم الذنب لكانوا فساقاً، ولو كانوا كذلك لوجب أن لا تقبل شهادتهم لقوله تعالى: (إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) (2)، وإذا لم تقبل شهادتهم في أمور الدنيا، ففي إثبات أمور الدين لا تقبل، وهذا باطل فذاك باطل.

ثالثاً: إن بتقدير إقدامه على المعصية يجب زجره عنها، ولم يكن حينئذ إيذاؤهم محرماً، ولكن إيذاءهم محرم، لقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

(1) راجع في ذلك تفسير الإمام الرازي، ج2، ص8، ومحصل أفكار المتقدمين للرازي، ص319-320، والمواقف للقاضي الإيجي، ص359، والصحائف الإلهية للإمام السمرقندي، ص435- 436، والجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(2) الحجرات: 6.

لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) [١] إذن فهم، صلوات الله عليهم، لا يقـدمون علـى أي معصية.

رابعاً: لو أتى النبي بالمعصية لوجب علينا اتباعه والاقتداء به، لقوله تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ) [٢] فيفضي هـذا إلـى الجمـع بـين الوجوب والحرمة، وهذا باطل فذاك باطل[٣].

وإذا كان جمهور العلماء على براءتهم من كل عيـب ونـزاههم مـن كـل معصية، فالأولى الأخذ بهذا الرأي، احتياطياً في شأنهم، من إسناد النقائص إليهم ، وقد أمر الله عز وجل سيد الخلق بأن يقتدي بهم في قوله سبحانه: (أُوْلَـئِكَ الَّـذِينَ هَـدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [٤] وقد أمرنا الله تعالى باتباع حبيبه، صلى الله عليه وسلم، حيـث قد جعل طاعته من جنس طاعته، فقال سبحانه: (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ) [٥] وقال سبحانه : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [٦] فكيف يكونون، والحال هكذا، غير معصومين – صلوات الله عليهم أجمعين – قبل النبوة أو بعدها.

هذا ما أردنا إثباته، وتحقيق القول فيه، وهو ترجيح الـرأي الـذاهب إلـى عصمة الأنبياء، عليهم السلام، عن صغير الذنوب وكبيرها، قبل البعثة وبعـدها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

نسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يجعل حبه أحب الأشياء إلينـا وأن يجعل خشيته أخوف الأشياء عندنا، وأن يقر عيوننا بعبادته، كما نسأله، سـبحانه وتعالى، أن يمنحنا حب أحبابه من الأنبياء والمرسلين، حتى نذب عنهم بقدر حبنا لهم وأكثر.

---

(١) الأحزاب: ٥٧.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) انظر المراجع السابقة.

(٤) الأنعام: ٩٠.

(٥) النساء: ٨٠.

(٦) الحشر: ٧.

المراجع :

- القرآن الكريم

أولاً : كتب التفسير:

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ط/ ١٩٨٣م.

٢- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، طبعة دار ابن حزم، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، وطبعة دار التراث- القاهرة - بلا تاريخ.

٣- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، ط/ دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٤- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ط/ إحياء التراث العربي، بيروت.

٥- فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام/ دار الكتب العلمية، بيروت.

٦- في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب، ط/ دار الشروق العاشرة ١٩٨٢.

٧- المحرر الوجيز في تفسر القرآن العزيز للإمام عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق مجموعة من العلماء، طبع على نفقة أمير دولة قطر، ط/ دولة قطر، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.

ثانياً: كتب السنة :

٨- الجامع الكبير (سنن الترمذي) للإمام أبي عيسى محمد الترمذي، ط/ دار ابن حزم، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .

٩- صحيح البخاري للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ط/ بيت الأفكار، لم يذكر له تاريخ، وهو مجلد واحد.

١٠- صحيح مسلم للإمام الحافظ أبي الحسن مسلم بن الحجاج، ط/ بيت الأفكار الدولية ١٩٩٨م.

ثالثاً : كتب المعاجم

١١- مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان ١٩٨٨م.

١٢- المعجم الوسيط للدكتور/ إبراهيم أنيس وزملائه، ط/ دار إحياء التراث الإسلامي، قطر ١٩٨٥م.

١٣- الموسوعة العربية الميسرة، للأستاذ/ شفيق غربال، ط/ دار الجيل سنة ١٩٩٥م

رابعاً : كتب السيرة

١٤- البداية والنهاية، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ط/ دار إحياء التراث العربي، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١٥- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، ط/ دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٩١م.

١٦- السيرة الحلبية، (إنسان العيون) للشيخ/ علي برهان الدين الحلبي، ط/ دار المعرفة ، بلا تاريخ.

١٧- فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، ط/ دار الريان للتراث ١٩٨٧م.

١٨- فقه السيرة للدكتور/ محمد سعيد البوطي، ط/ دار الفكر، بيروت.

خامساً: الكتب العامة

١٩- أباطيل التوراة، الدكتور محمد البار.

٢٠- الإبانة عن أصول الديانة، للإمام أبي الحسن الأشعري، ط/ دار النفائس، ط١/ أولى ١٩٩٤م.

٢١- الإجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، للإمام القرافي، تحقيق د/ بكر زكي.

٢٢- الإحكام في أصول الأحكام، للإمام سيف الدين الآمدي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣- إرشاد الفحول، للإمام محمد بن علي الشوكاني، ط/ مصطفى الحلبي ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، الطبعة الأولى.
٢٤- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، تأليف الدكتور علي عبدالواحد وافي، مطبعة دار نهضة مصر، القاهرة.
٢٥- أصول الدين، للإمام عبد القاهر البغدادي، ط/ دار الكتب العلمية، ١٩٢٨م.
٢٦- أصول الدين، للإمام جمال الدين الغزنوي، تحقيق د/ عمر الداعوق، ط/ دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.
٢٧- أصول الدين، المسمى معالم أصول الدين، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م.
٢٨- بين الإسلام والمسيحية، للعلامة أبي عبيدة الخزرجي، تحقيق د/ محمد شامه، ط/ مكتبة وهبه، سنة ١٩٧٢م.
٢٩- البحر المحيط للإمام، بدر الدين بن بهادر (الزركشي)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٣٠- تاريخ الأقباط، للعلامة تقي الدين المقريزي، ط/ دار الفضيلة، ١٩٩٨م.
٣١- تاريخ الأقباط، للأستاذ / زكي شنودة.
٣٢- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، لانسلم تورميدا المسمى بعبد الله الترجمان- دراسة وتحقيق عمر الداعوق- طبعة دار البشائر الإسلامية، الطبعة١/ ١٩٨٨ ، ط/
٣٣- تحفة المريد على جوهرة التوحيد، للإمام إبراهيم البيجوري، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١/ ١٣٤٧هـ.
٣٤- التوحيد الخالص، أو الإسلام والعقل، للإمام عبدالحليم محمود، ط/ دار الكتب الحديثة- القاهرة من غير سنة.
٣٥- حاشية الدسوقي على أم البراهين، للإمام سيدي محمد السنوسي، ط/ دار الفكر.
٣٦- الدعوة الإسلامية، للدكتور/ محمد يوسف حمودة، ط/ دار الطباعة المحمدية، ط الأولى، ١٩٩٣م.
٣٧- رد شبهات حول عصمة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، للدكتور/ عماد السيد الشربيني.
٣٨- الرد الجميل لألوهية عيسى، عليه السلام، لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، تحقيق د/ محمد عبدالله الشرقاوي، مطبعة دار أمية للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٣٩- شرح الشفا، للقاضي عياض، شرحه الإمام الملا علي القاري، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠-شرح المقاصد، للإمام العلامة سعد الدين التفتازاني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م .
٤١- شرح الكوكب المنير المسمى مختصر التحرير، للعلامة محمد بن أحمد الحنبلي (ابن النجار)، تحقيق د/ محمد الزحيلي، د/ نزيه حماد، من منشورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى- مكة المكرمة.
٤٢- الصحائف الإلهية للإمام شمس الدين السمرقندي، تحقيق، د/ أحمد الشريف، ط/ مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

٤٣- عصمة الأنبياء، للإمام الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.
٤٤- العقيدة الإسلامية وأسسها، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكه، ط/ دار القلم، الطبعة السابعة، ١٩٩٤ م، ١٤١٥ هـ.
٤٥- العقيدة الإسلامية، للدكتور الفرت.
٤٦- العهد القديم، الكتاب المقدس، نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٥م.
٤٧- العهد الجديد، الكتاب المقدس، نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٥م.
٤٨- فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت، للإمام محب الله البهاري، طبعه وصححه عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
٤٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام علي بن حزم الأندلسي، طبع بالمطبعة الأدبية سنة ١٣٢٠، / تصوير دار المعرفة، بيروت.
٥٠- الفرق بين الفرق، للإمام البغدادي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، تصوير دار المعرفة- بيروت.
٥١- القبسات السنية، شرح العقيدة الطحاوية، تأليف د/ صلاح عبدالفتاح الخالدي، طبعة دار القلم ، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٠م.
٥٢- كبرى اليقينيات الكونية، للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ط/ دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة ٢٠٠٤م.
٥٣- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للعلامة الشيخ/ محمد السفاريني، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٥٤- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة مكتب الشرفاء- القاهرة.
٥٥- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، للإمام الرازي، راجعه/ طه عبدالرؤف، ط/ دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م.
٥٦- مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور/ علي عبد الواحد وافي.
٥٧- المحصول في علم الأصول، للإمام الرازي، تحقيق د/ طه جابر العلواني، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
٥٨- المسيحية، الدكتور/ أحمد شلبي، مطبعة دار النهضة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م.
٥٩- الملل والنحل، للإمام الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت- الطبعة الثانية- ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.
٦٠- المنخول من تعليقات الأصول، لحجة الإسلام، أبي حامد الغزالي، تحقيق د/ محمد حسن هيتو، ط/ دار الفكر ١٩٨٠م .
٦١- الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، تحقيق د/ عبدالله دراز.
٦٢- المواقف، للقاضي عبدالرحمن الإيجي، طبعة عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنى- القاهرة، مكتبة سعد الدين، دمشق.
٦٣- نقد التوراة، الدكتور أحمد حجازي السقا، طبعة دار الجيل، بيرو، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٦٤- نهاية السول في شرح منهاج الأصول، للقاضي ناصر الدين البيضاوي، تـأليف الإمـام جمـال الـدين الأسنوي، تصوير عالم الكتب، بيروت.

٦٥- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، ط/ المكتبة القيمـة للطباعة والنشر والتوزيع، ط/ ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٦٦- الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، الطبعة الثانية، ١٣٥٢هـ.

* *

